رواية

عاطف الحاج سعيد

ربيع وشتاء

منشورات إبيدي

ربيعٌ وشتاء

رواية

عاطف الحاج سعيد

عنوان الكتاب: **ربيع وشتاء**

تأليف: **عاطف الحاج سعيد**

الترقيم الدولي للكتاب **9789778549881** **ISBN** **طبعة دولية**

التصنيف الموضوعي (ثيما): **أدب - رواية** **Thema Codes: F**

الطبعة : **الأولى - 2019** رقم الإيداع : 2019/13451

التحرير والتدقيق اللغوي: **إبييدي بوك داتا** **ibiidi BookData**

لوحة الغلاف:

تصميمات إبييدي

ندي فرج

خدمات إبييدي بوك داتا للنشر

ibiidi BookData Publishing Services

www.ibiidibookdata.com

Windsor, UK & Alexandria, Egypt

منشورات إبييدي

www.ibiidipublishing.com

الناشر : **منشورات إبييدي - إبييدي مصر**

سموحة - الإسكندرية info@ibiidipublishing.com

\ibiidiPublishing \ibiidiPubAR

اطلب جميع الإصدارات من www.ibiidi.com

© جميع الحقوق محفوظة للناشر و أي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو الكترونية أو أي وسيلة سمعية أو بصرية دون موافقة كتابية، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

فهرست

الفصل الأول	ساعي البريد الأخضر	9
الفصل الثاني	نحو فانتيميليا	23
الفصل الثالث	كْلُوشَار	39
الفصل الرابع	قْلُوْسَرِي	51
الفصل الخامس	115	65
الفصل السادس	لاشابيل	81
الفصل السابع	ربيع وشتاء	97
الفصل الثامن	غرفة 13	107
الفصل التاسع	تلباثيا	127
الفصل العاشر	جحيم سانت لويس	137
الفصل الحادي عشر	شيخوخةٌ هادئة	149
الفصل الثاني عشر	جيغولو	157
الفصل الثالث عشر	جحيمُ المنسيين	175
الفصل الرابع عشر	ساحةُ مَادْلين	187

إهداء

إلى عبد الخالق الحاج سعيد..
مصباح الاستنارة الذي أوقدته
بثوريةٍ في شبابك الباكر أنار عقلي
قبسٌ منه!

امتناني وودّي المتصل.

"أؤمن بأنّ العالم بأكمله- ليس فقط الأرض والأشياء التي تكوّنها، ولا الكون الذي صنفنا عناصره الأولية، بما فيها الأكوان التي تتجاوز بصيرتنا ووسائلنا- وإنّما العالم كله، المعروف مِنه وغير المعروف، مختل، يصرخ مِن الألم والجنون...".

هنري ميلر- مدار السرطان

الفصل الأول

ساعي البريد الأخضر

سأحكي لك اليوم أمرًا عجيبًا حدث في عطلة نهاية الأسبوع. رنَّ أحدهم عليّ جرس الشقة في تمام التاسعة صباحًا. كنتُ قد صحوتُ للتو مِن النوم حتى أنَّني لم أنجز حمَّامي الصباحي، ولم أتناول إفطاري بعد. كان الطقس لطيفًا أثناء الليل فتركتُ النافذة مفتوحةً حتى الصباح، ولم أحتج أنْ أضعَ غطاءً على جسمي؛ فالصيف على أشدّه هذا العام، إنَّها لعنة التغييرات المناخية التي تضرب الأرض بقسوة. إنَّنَا هنا في أوروبا نحسُّ هذا التغيير بصورة ملموسة؛ فالناس في إفريقيا مثلًا لا يعون هذا التغيير ولا يحسونه، إنهم في جهلهم وبلادتهم يعمهون. نهضتُ مِن السرير، ولم أخمن مَنْ يكون الطارق. فَكَّرتُ ربما يكون واحدًا مِن متطوعي الجمعيات الناشطة في الحي الذي امتلأ بالمهاجرين الأفارقة، والذين ينتشرون في شوارعه مثل جرذان المجاري السوداء، يطلب شيئًا بغرض مساعدة هؤلاء اللاجئين، سبق أن ملأتُ استمارة أُعْلِنُ فيها رغبتي في مد يد العون، وأوضحت أَنّي موجودٌ خلال يومي العطلة الأسبوعية في شقتي وأرسلتها للجمعية، إنها واحدة مِن الحماقات التي نرتكبها في لحظة ضعف ساذجة، لكنهم عادة لا يأتون في مثل هذا الوقت مِن الصباح، إنَّها عطلة نهاية الأسبوع! لا يا سيدي. على الإطلاق، لم يكن الأمر مزعجًا بالنسبة لي. على كُلّ حال كنتُ مرتبكًا وليس لدي تصورات واضحة للكيفية التي سأمضي بها العطلة. منذ أنْ فارقتني زوجتي الفرنسية آن ـ صوفي والتي كانتْ تخطط جيدًا لبرامج نهاية الأسبوع فهي، والحق يُقَال رغم كل ما فعلته بي وما

سببته لي مِن ألم، تحب الاحتفاء بالحياة، ولها قدرة عجيبة في استخلاص المُتَعِ مِن الأشياء الصغيرة والتافهة وحتى العابرة، لم أستطع بعدها أنْ أخطط جيدًا لهذا الوقت الكبير مِن الضجر. يتطلب الأمر مهارة ترفيهية ذات دُرْبَة. عادة ما أحملُ صباح السبت الملابس المتسخة لأضعها في المغسلة الأوتوماتيكية العامة التي تقع عند ناصية شارعنا. تستغرقُ عملية الغسيل نحو أربعين دقيقة، ثم أضعها في المنشفة الآلية والتي تستغرقُ حوالي ثلاثين دقيقة لتجفف الملابس جيدًا. عادة لا أُشْغّل الحرارة القصوى للتجفيف حرصًا مني على عدم تعقيد مشكلة الاحتباس الحراري. تأتي دائمًا في مثل هذا الوقت صبيةٌ في الخامسة عشرة مِن عمرها، مِن أصول مغربية، لها ساقان طويلتان، ومؤخرة تتكور بصورة مذهلة وجسد كأنَّه منحوتة يونانية لأفروديت. تضع ملابسها الرياضية ومناشفها في المغسلة وتنتظر، تعضُّ على شفاهها الغليظة، وتضع سماعات هاتفها على أذنيها، وتضرب بقدمها اليمنى على إيقاع الموسيقى التي تسمعها. أعرف أنَّه أمر مخزٍ في هذه البلاد أنْ يشتهي رجلٌ في الأربعين مِن عمره فتاة مراهقة، لكنها واحدة مِن محمولات البلاد القديمة استعصى عليَّ أنْ أتخلصَ منها، وتعذبني باستمرار. إنهن شَهِيَّات أكثر مِن قدرتي على التحمل.. لا تظن بي سوءًا يا سيدي، فلم يسبق لي بتاتًا أنْ تحرشت بواحدة منهن، ولم أنتقل أبدًا مِن الاشتهاءِ للفعل، ربما استدعي فقط بهاءهن بمخيلتي في بعض الأحايين التي أتخلص فيها مِن رغبتي ذاتيًا. أستطيع أنْ أؤكدَ لك يا عزيزي أنَّ مسألة

التحضُّر بها بُعد جِيني، بمعني أنَّ الإنسان المتحضِّر والمتمدن يستمد جزءًا مِنْ تحضره وتمدنه مِن جينات وراثية، وليس فقط مِن نشأته في بيئة متحضرة، وأُدلل على ذلك بأنَّ الجيل الثالث مِن الأفارقة الذين وُلِدُوا في هذه البلاد ما زالت بهم بربرية؛ قل لي كيف تفسر أنَّ يحكَّ الأسود عضوه التناسلي أمام الجميع وفي أي مكان دون حياء، أو أنْ يتلصص على ثديي سيدة تجلس في مقعدها بينما يقف فوق رأسها داخل المترو؟! إنَّهم سيحملون هذه الجينات الهمجية إلى نهاية الكون، أراهنك على ذلك!

أنهض بتكاسل لأسير نحو الباب. عندما افتحه أجد ساعي البريد يحمل طردًا في يده. يرمقني بعينين منطفئتي الحياة. أرى أنه يشبهني بصورة مرعبة، كأنَّه النسخة الأوروبية مِنّي. فهو أبيض البشرة وأنا أسمر، شعره كستنائي خفيف وشعري أسود ومجعد وسميك، عدا ذلك أرى أن لكلينا ذات السمات الجسدية. انتظر أنْ يقول شيئًا، لكنه فقط يمدَّ لي بالطرد البريدي ويمدَّ لي بعد ذلك دفترًا لأوقع بالتَسَلُّم بينما يحدِّق في اللاشيء تقريبًا، في الفراغ الممتد عبري إلى نهاية الكون اللانهائية، هيئته حقًّاً غريبة! أتسلَّمُ الطرد وأوقِّع بالتسلُّم. عندما يستدير، ونظرته تجوس باستمرار في اللاشيء، زحفًا بآلية تامة مثل ماكينة نظافة في مطار كبير أو حتى مثل إنسان آلي، أرى أنَّ للرجل ذيلًا معدنيًّا معقوفًا مثل ذيل قطة متحفّزة للقتال لكنه لا يتحرك، على رأس الذيل مصباح صغير أخضر يضيء بصورة متقطعة، ويطلي بذلك كامل الممر بلون أخضر فتَّاك. عندما يصل الأسانسير لا يستدير، بل يخترق

الحائط بسلاسة مُخلّفًا وراءه غلالة خضراء موحشة سرعان ما تلاشت ولم أعد أراه!

أتحسس الطرد، لم يكن ثقيلًا ولا خفيفًا، لكنه أكبر مِن أي طرد تلقيته مِن الإدارات الفرنسية المولعة بالمكاتبات البريدية لحد الهوس. أعجز عن تخمين محتواه فأرمي به على الكنبة، وأفكر لبرهة ربما استجلبت إدارة البريد رجالًا آليين ليقوموا مقام البشريين في توزيـع البريد، لكنه يشبهني جداً!

أنجز حمامي الصباحي بسرعة وبغير إتقان: لم أنظف أسناني مثلًا بالطريقة الصحيحة مِن أسفل إلى أعلى، والتي علمتني إياها آن-صوفي، وعدتُ لطريقتي القديمة بأنْ أُحَرّك فرشاة الأسنان كيفما اتفق داخل التجويف الفموي.

قالت لي آن-صوفي وقتئذٍ بطريقتها الهزلية المحببة:

- لا بد أنْ تستاك بصورة صحيحة قبل النوم لكي أستطيع أنْ أفترسَ فمك المتوحش بشهية في أي وقت مِن الليل أو حتى في أحلامي، أريده طازجًا ومنعشاً!

أعدُّ إفطارًا خفيفاً: سندوتشًا مِن الخبز المحمص، أضع عليه زبدًا نباتيًّا ومربى تين، أصب عصير برتقال على كأس صغير ثم أحضر قهوة سوداء. أتناول الطرد وأفتحه. أجد بداخله كَمًّا مِن الأوراق المطبوعة مُثَبَّتةً على حامل أوراق، أقرأ على الورقة الأولى عنوانًا مكتوبًا بخط كبير:

أتصفح الأوراق التالية فلا أعثر على اسم الكاتب ولا على أية معلومة عنه. أقلّب الأوراق بتأنٍ. بدتْ لي مصادفة غريبة كَوْن الورق المستخدم في طباعة الرواية يشبه الورق الذي استخدمه أستخدمه، وهو نوع مِن الورق صديق للبيئة يمكن أنْ يُعَاد تدويره، والأكثر غرابة أنَّ الرواية مكتوبة بنفس نوع الخط الذي أفضّله، وأنَّ المسافة بين السطور هي نفس المسافة التي استخدمها أستخدمها، وتنسيق الصفحة يشبه أسلوبي في التنسيق!

أمضي نهار السبت كاملًا في قراءة الرواية. معظم شخصيات الرواية مألوفة لدي أو بالأحرى أنا أعرفها تمامًا رغم أنَّ الكاتب غيّر مِن بعض الأسماء وبعض التفاصيل. لا ... لا يا سيدي الفاضل ليستْ نماذج إنسانية روائية تطابقتْ مع أشخاص أعرفهم، أنا متيقن مِن أنَّ معظم شخصيات هذه الرواية أعرفها بصورة واقعية وملموسة. حتى الفضاءات المكانية التي تدور فيها معظم

أحداث الرواية هي فضاءات ارتدتُها ذات يوم، أو مازلتُ أرتادها بوصفي مترجمًا في المرافق العامة.

الرواية جيدة في ظني. ها هي نسختك التي ستقرؤها إنْ توفر لك الوقت والرغبة. قمتُ فقط بتعديلات بسيطة، قمتُ مثلًا بتقديم مشهد يأتي مِن ضمن المشاهد الأخيرة في الرواية وجعلته المشهد الافتتاحي. لا.. أنا لستُ بروائي لكن أظنني قارئًا جيدًا، وأعتقد أنَّ هذا المشهد سيمسك بالقارئ ويدفعه لمواصلة القراءة، لم يعد لدينا ذلك القارئ المثابر الذي يتحمل طويلًا تَقَعُّر الكُتَّاب ودورانهم المضني، للقارئ طبعًا، في دوامة مِن الفذلكات اللغوية والاستعارات المُفْرَغَة مِن المعنى. ستتفق معي عندما تقرأ المشهد، ها هو ذا يبدأ مِن هنا:

" يجلس عاصف محجوب أمام المعالج النفسي مبتئسًا، ويفيض بالضجر. يعتم عينيه ضباب مِن اليأس. وتحاصره ذات الأسئلة التي تتناسل بصورة شيطانية. أين هو الآن في مراتب الوجود اللانهائية؟!

ينظر له المعالج النفسي بينما يعقد يديه على صدره بتأنٍ ثم يقول:

- إنَّ الهجرة اختبار قاسٍ. لن يطيق خسائرها النفسية بشر. أتفهم تمامًا كل المشاعر السلبية التي تنمو بداخلك. أنا أسمعك وسأساعدك في التخلص منها إلى أنْ يكتمل مشروع اندماجك في مجتمعك الجديد.

يتنفس عاصف ببطء ثم يقول مشيرًا إلى معصمه:

- لا أظنُّ أنَّ اندماجي سيتم وعلى يدي هذه العِصَابة الحمراء!

ينظر المعالج باستغراب للعِصابة ثم يسأل:

- ومَنْ الذي وضعها لك؟

- لا أعرف، صحوتُ مِن غيبوبتي في مشفى في إيطاليا ووجدتها معقودة على معصمي.

- ومن وضعك في المشفى؟

- فِرَق الإسعاف البحري التي أنقذتنا بعد غرق القارب الذي يقلنا.

- ربما هي علامة تستخدمها فِرَق الإنقاذ هذي لتمييز الضحايا مِن الناجين أو لفرز الحالات، لست متأكداً! ِ

يصمتَ لبرهة ثم يتحسس العِصابة بيده:

- لِمَ تظن أنَّ هذه العِصَابة تمنع اندماجك؟

- لأنها تجسد حُكْمَا أصدره القاضي بوكاتشيو ضدي.

- عفواً؟!

- إنها رؤية أو ربما هي استيهامات!!

- تظلُّ الاستيهامات، بغض النظر عن أشياء كثيرة، مستوى مِن مستويات الواقع!

يصمتَ المعالج. يَطْرِقُ بطرف قلمه على المنضدة بصورة رتيبة. ينظر لعاصف الذي يخفي وجهه بين يديه لبرهة ثم يسند رأسه على راحة يده اليمنى. يجلس غراب أسود صغير على النافذة مِن الخارج وينقر نقرات متباعدة على زجاج النافذة، تتساقط على رياشه أوراق الخريف الصفراء، الفضاء معتمٌ ويملأ الغيم الداكن السماء. ربما ستمطر. يسأله:

- هل حاولتَ أنْ تنزع هذه العِصَابَة؟

- نعم، ولكني أفشل في كل مرة!!

- لماذا؟

- تحدث أشياء عجيبة وقاهرة فتمنعني من إزالتها!!

يضحك لبرهة ثم يقول:

- إِنَّك تنشئ خرافات حول هذه العِصَابة. هل تريدني أنْ أزيلها؟

- نعم!!

ينهض المعالج ويستدير نحو دولاب صغير منصوب عند طرف الغرفة، يفتحه ويخرج مِنه مقصًا صغيرًا. ويتقدم نحو عاصف. يأخذ الغراب في النقر على النافذة المغلقة بوتيرة متسارعة، يفتح منقاره ويصيح، لكن صيحاته تضيع في عتمة الجو. عندما يمسك المعالج بيد عاصف ينفتح مصراعا النافذة مصدرين صوتًا عنيفًا، ومن ثْمَ تندفع ريح قوية فيرتفع جسد المعالج في فضاء الغرفة كأنَّ إعصارًا كونيًا هائلًا اجتثه مِن أقدامه،

ثم يهوى به على الأرض بشدة!! ”

ألا تتفق معي أنَّ القارئ سيكون متلهفًا لمعرفة منتهى الحكاية ومبتدأها. إنَّه تكنيك سردي فعّال، أنْ تبدأ السرد والحدث في ذروته. لو فكرت أنا مثلًا ذات يوم في كتابة رواية أوتوبيوغرافية عن حياتي سيكون المشهد الافتتاحي، والذي سيمسك بالقارئ ويجعله يعدو خلف السطور مثل طريدة تبتغيها جماعة مِن الأسود الجائعة، هو التالي:

” يرن جرس المنبه بنغمته الوحشية، يحاول أنْ يمد يده ليسكته لكن يستذكر أنَّ آن ـ صوفي قد وضعته بعيدًا عن السرير منعًا للتحايل. يظلُّ المنبه يرنُّ إلى أنْ يقوم نحوه بتكاسل ويسكته، ثم يعود للسرير بسرعة وسط العتمة، مازالت النوافذ مغلقة تمامًا. يحسُّ صداعًا خفيفًا نتيجة إفراطه في شراب الجعة ليلة البارحة. في كل مرّة يقرر أنَّه لن يفرط في شربها، لكن غالبًا ما يفقد السيطرة عقب احتساء أول زجاجة! ينهض بينما يفكر في لقاء صباحي حميم كما جرت العادة بينهما طيلة أيام الأسبوع، عدا أيام العطلة الأسبوعية! اعتادت آن ـ صوفي أن تقول له بعد أن تَكْرَع من نشوتها الصباحية:

- إنَّ خير استهلال ليوم عمل ناجح هو جنس عنيف.

ثم تضحك مضيفة وهي تضع المُبَيّض على قهوتها السوداء:

- استغرب كيف يركض الناس في الشوارع والساحات في الصباح الباكر بهدف رياضة أجسامهم وعندهم أفضل ميدان للرياضة مع الشريك: السرير!!

يتَخَيَّل أحضانها الحامية فتركض الرغبة على جسده بجنون. يمدّ يده متحسسًا مكانها بقربه فتصطدم بكثافة الفراغ إذ تملؤه فقط برودة الفراش، يستدير بوجهه، لم تكن هي في مكانها المعهود. حسنًا ستعود مِن الحمّام بعد قليل. يفكّر أنَّ الشيء الوحيد الذي ظلَّ راضيًا عنه تمام الرضاء في حياته التي امتدتْ في أزمان مختلفة وأماكن عديدة هو أحضان آن ـ صوفي، منحتْه ما لم يمنحه له أي شيء آخر في هذه الحياة. يفكر أنَّها عندما تأتي سيقفز عليها مثل قرد إفريقي هائج، سيأخذها بين يديه ويدور بها نصف دورة ثم يطرحها على السرير، وينزع عنها ملابسها بعنف، هي تحبُّ هذا العنف وتعشقه وتطالب به بلا كلل. لكنه لا يسمع صوت حركتها في الحمام. يضيء النور، يفتح باب الحمام، لم تكن بداخله. يناديها:

- آن ـ صوفي اخرجي ودعي الألاعيب!

كانتْ في بعض الأحيان تمازحه بالاختباء خلف الباب أو تحت السرير، أو حتى بالخروج والوقوف قرب باب الشقة مِن الخارج، ثم مفاجئته بجسدها العاري إلا مِن رغبتها المجنونة المُشْهَرَة، فيشهق لحظتها ويناديها بحماس:

- تعالي لأسحقك...!!

لكنها الآن لا تجيب. يتجوَّل صوته في أنحاء الشقة ويرتد له الصمت المجلجل. ينظر حواليه فيرى أنَّ دواليب الغرفة مُشْرَعة وأغراض آن ـ صوفي ليست في مكانها. ينهض مفزوعًا. يركض نحو الصالون، نحو المطبخ، نحو الحمام الخارجي. لكنها لم

تعد هنا، لم تعد في المكان إلا أطيافها. لم يسبق أنْ حَدَث ذلك على الإطلاق. لكنه يتذّكر الذي حدث بالأمس، يتذكر كل شيء بالتفصيل، يقول في ذات نفسه: لكنها لا يمكن أنْ تغادر لهذا السبب! يجلس مُحْبَطًا على طرف طاولة الأكل، يهرش رأسه بحنق: كيف يمكن أنْ تتدهور الأمور هكذا؟! يسند يده على الطاولة فتصطدم بكومة أوراق، يرفعها بيأس، عندما يمررها أمام عينيه يقرأ:

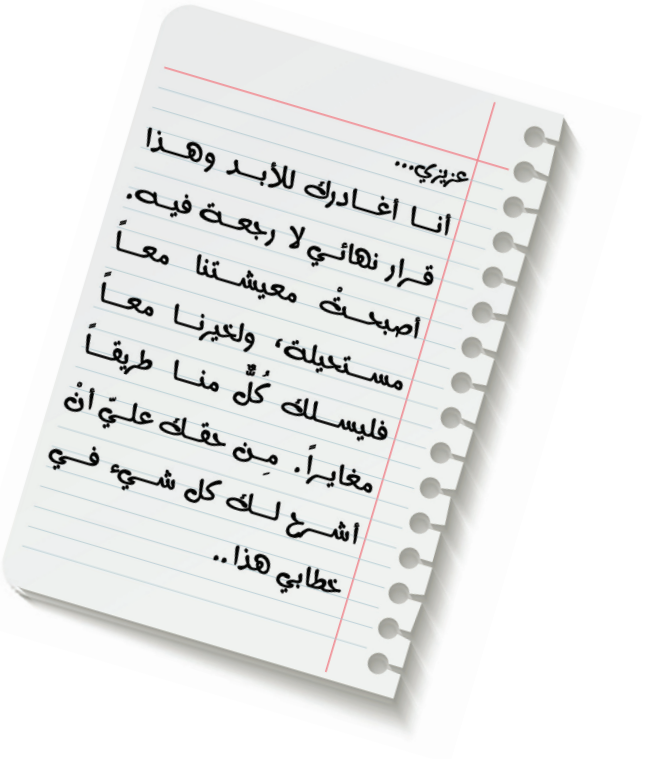

يجلس على الأريكة ببؤس ثم ينهمك في القراءة!!

الفصل الثاني

نحو فانتيميليا

يرى عاصف جسده ممددًا على رامية منجنيق ضخم، رأسه للأسفل ورجلاه للأعلى. يرى مِن بين رجليه فضاءً كونيًّا فسيحًا ممتدًا. يرتجف عاصف ويصيح لكن صياحه يجوس في داخله ويسمعه هو فقط، يعرف أنه سيرمى به خارج الأرض، لكن أين سيكون خارج الأرض هذا: أهو سطح القمر؟ أم سيدور في هذا الفراغ الكونيّ العريض مثل نيزك صغير ضال؟ يستلّ حارس المنجنيق سكينه الحاذقة ويشرع برتابة، وهو يتثاءب بضجر كبير، في قطع الحبل الذي يَشُدُّ الرامية للأرض ليتحرر الثقل الضخم الذي سيدفع الرامية بقوة هائلة. عاصف يرتجف ويصيح، لكن صياحه يجوس في داخله ويسمعه هو فقط، كأنَّه يأتي مِن كهف جبلي مهجور. برهة وينقطع الحبل لتندفع الرامية بجنون عاصف!

عندها ينهض عاصف مفزوعًا. وجهه مُغَطًّى بالعرق البارد. ينظر بذهول لما حوله. غرفة بيضاء صغيرة. وسرير، لا يشبه الأَسِرَّة التي يألف، عليه مفارش نظيفة. يغمض عينيه لبرهة ثم يفتحهما. يتحسس بيده المنضدة التي تقبع بمقربة من السرير وعليها بعض الأدوية وقارورة ماء، يتحسس ما حوله كأنَّه يبحث عن شيء مادي يؤكد له بأنَّ ما يراه ليس استيهامًا. أنفاسه تعلو وتهبط كموج بحر مائج، يلمح شخصًا يبتسم له عبر زجاج باب الغرفة. دخل الشخص وسأله بالإنجليزية:

- هل أنت بخير؟

يجيب عاصف بالعربية بينما يضغط بأصابعه على صدغيه:

- نعم بخير.

- حسنًا، فلنتحدث باللغة العربية. هل تسمح لي بأنْ أطرحَ عليك بعض الأسئلة؟

يشير عاصف برأسه موافقًا. يسحب الشاب العشريني ذو الملامح الشرقية كرسيًا ويجلس عليه، ثم يخرج أوراقًا مطبوعة وقلمًا أزرق مِن حاملة أوراقه الصغيرة. كانت نبرة الشاب تنحو إلى أنثوية غامرة.

- هل تتذكر مَنْ تكون وما جنسيتك؟

يسحب عاصف رأسه للخلف ثم يجيب بعد برهة:

- نعم. أنا عاصف محجوب. سوداني.

يسأله مرة أخرى وهو يدون:

- هل تعلم أين أنت الآن؟

- لا أعلم.

- هل تعلم لِمَ أنت هنا؟ وكيف أتيتَ إلى هنا؟

يضغط عاصف على رأسه بلطفٍ، ثم يفرك فروة رأسه ويجيب:

- ذهني مشوش جدًا. لكن أظن أنَّ القارب الذي يُقِلُّنا غرق في البحر.. لا أذكر التفاصيل.

- نعم. غرق مركبكم قبالة سواحل لامبيدوزا في إيطاليا، وأَتَتْ بكم فرق الإنقاذ البحري إلى هنا.

- هل تتذكر مَنْ كان معك في المَرْكِب؟

- لا أستطيع الآن.

- هل كان معك بالمركب أي شخص مِن أسرتك؟

- لا أظن.

- على كل حالٍ نجا بعضكم وغرق أغلبكم. إِنَّه شيء مؤسف لكنه يتكرر بصورة يومية على سواحلنا.

يصمتا لبرهة، يقول عاصف:

- أين أنا الآن تحديداً؟

- أنت في معسكر للاجئين في إيطاليا. أنت الآن تحديدًا في مشفى المعسكر.

ينظر عاصف ليده اليسرى بقلق ثم يسأل مرة أخرى:

- وما هذه العِصَابة الحمراء على معصمي؟

ينظره الشاب باستغراب، يجيب:

- لا أدري.

يتحسس الشاب العِصابة بيده، ثم يعلّق:

- إِنَّها مصنوعة مِن مادة غريبة؛ ربما لم أرَ مثلها مِن قبل.

يهمهم عاصف بيأس:

- أين ملابسي؟

- مُعَلَّقَة على مشجب الحمام. يمكن أنْ ترميها فهي رثة ومعطونة بماء البحر. سَتُعْطَى ملابس جديدة بعد قليل.

يهتف عاصف سريعاً:

- أريد ملابسي القديمة لو سمحتَ.

يدخل ممرض الغرفة، ويتجه دون اكتراث بهما نحو رف الأدوية، يأخذ محقنة ويقوم بتحضيرها. وإذ يرفع المحقنة ليفرغها مِن فقاعات الهواء يرمق عاصف بطرف عينه، يتأمله عاصف بفزع كبير إذ يرى فيه بيقين القاضي بوكاتشيو الذي ربما التقاه في المنتدى الروماني القديم، والذي اقتيد له بعد خروجه من البحر، رغم الملابس الطبية العصرية التي يرتديها لكن عاصف يميّزه: نفس الأنف المعقوف كمنقار نسر، وذات العينين الممتلئتين ضبابًا وصرامة. يظن أن بوكاتشيو أصدر حكمًا بنفيه خارج الأرض رميًا بواسطة منجنيق ضخم. يضغط على ذهنه ويهصر رأسه بكلتا يديه ليجعل هذه الذكرى أكثر تركزًا، لكنها تتفلّت منه، وتراوح بين الاستيهام والحقيقة، يصيح عاصف بحسم:

- لا أريد هذا الدواء، أخرجوني من هنا!

ينهض الشاب ويشير للممرض بالخروج. يرسم الممرض، بينما يهم بالخروج، على طرف فمه ابتسامة صغيرة جدًا وغامضة، ويرسل بها ناحية عاصف الذي يرتجف برعب. يهمهم بهلع:

- إنَّه بوكاتشيو. لم يكن كابوسًا إذنْ...!!

- ماذا قلتَ؟

- أخرجوني مِن هنا، صاح عاصف.

- أنتَ لستَ مسجونًا يمكنك الخروج وقتما شئتَ صوب المعسكر.

- سأخرج الآن!

- عمومًا حالتك الطبية مستقرة. وقّع بعض الأوراق واذهب لتسجيل بياناتك الشخصية في المعسكر لتحصل على جميع الخدمات التي تقدمها الجمعيات الطوعية.

يدخل الحمام، ينزع البيجامة الطبية التي لُفّ بها؛ ليرتدي بعدها ملابسه التي كانت مُعَلَّقَة على المشجب، ثم يخرج مِن المشفى الصغير ليجد نفسه في فضاء كبير تتناثر على أطرافه " هناجر" كبيرة تُذَكّره بمصانع السُّكَّر في بلاده. يحتشد الفضاء بالبشر الذين يتوزعون بعضهم في صفوف طويلة وبعضهم يجلس على الأرض، والبعض الآخر على مقاعد إسمنتية. يحل البؤس على وجوهم. لم يَأْبَه لمروره أحد. يرى خلقًا كثيرين

يتوزَّعون على صفوف كثيرة وطويلة، بعضها للطعام وأخرى للملابس، وبعضها يمتد لولبيًا أمام الحمامات، ينتشر البوليس الإيطالي في كل مكان، ممتشقاً هراواته الكهربية، حافظًا للنظام. الطقس معتدلٌ لكنه دَبِق. تركض على صفحة السماء سحبٌ كثيفة؛ تجعله غير قادر على تحديد موقعه في الزمان، بدا له أنَّ الوقت ربما يكون مساء أو ربما يكون صباحًا، ليس هناك مؤشر حاسم. يجلس عاصف على الأرض مغمومًا. يحس كأنَّه حُقِنَ بمخدر خفيف. يرى الأشياء مِن حوله ضبابية، يحسّ بأنَّه متأرجح في الزمان، تنتشر في جسمه أحاسيس جديدة لم يختبرها مِن قبل، كأنَّه انتقل إلى كوكب آخر، ولفح جسمه ريح كوني. يحسّ بأنَّ هناك شخصًا آخر يجهله يحلُّ في جسده. إنَّه شعور مربك. يحسّ كأنَّه في منزلة بين منزلتين! تتداعى في ذهنه بصورة مشوشة ذكريات تأتي مِن بلاده الواقعة جنوب البحر الكبير. يحاولُ أنْ يتحسس في ذهنه غاية عبوره لهذا البحر. يحاول أنْ يستدعي دوافعه لولوج هذه المغامرة، لأنها بدتْ له لوهلةٍ عبثية. إنَّه ينجح الآن ويعبر البحر بالرغم مِن كل المآسي التي رافقتْ هذا العبور. هو الآن أكثر قُرْبًا مِن هدفه. هل ستكون بقية الطريق ممهدة؟

يتقدم نحوه رجل يضع صدارة رمادية مزوقة بالأحمر على الأطراف، ومطبوعة عليها علامة الصليب الأحمر في أكثر من موضع، يحييه ثم يقول له بإنجليزية مدرسية:

- يجب أنْ تسجل نفسك لتمنح بطاقة، والتي مِن غيرها لن

تستفيدَ مِن الخدمات في هذا المعسكر.

- أين أسجل نفسي؟

- سيأخذ البوليس بصمات أصابعك وصورة شمسية لك، ثم يملأ استمارة فيها بياناتك الشخصية، ثم تحمل بنفسك الاستمارة ذاتها لإدارة المعسكر التي ستصدر لك البطاقة.

- حسنًا سأفعل ذلك.

- عليك أنْ تقوم بذلك سريعًا لأَنَّ المكاتب ستغلق بعد قليل. كل شيء هنا يعتمد على هذه البطاقة.

ثم يقفل راجعًا. وقبل أنْ يبتعد موظف الصليب الأحمر كثيرًا، تقدَّم نحوه رجل آخر كان يرقب حواره مع موظف الصليب الأحمر. جلس الرجل جواره ثم سأله دون مقدمات:

- هل تريد أنْ تتقدّم بطلب لجوئك في إيطاليا؟

يتأمل الرجل الذي يقتحمه بهدوء شديد. ملامحه تشي بأنه خليط مِن إثنيات إفريقية كثيرة، لولا أنَّه خاطبه بالانجليزيةبالإنجليزية لظنَّ أنَّه سوداني. هيئته تشبه هيئة اللاجئين المنتشرين في المعسكر. يجيبه بتردد:

- أريد الذهاب إلى فرنسا.

- حسنًا، لا تعطِ بصماتك للبوليس الإيطالي.

- لماذا؟

يجلس الرجل بقربه بحميمية غير مريبة، ثم يخاطبه بينما ينظر في عينيه بلطف:

- لأن القوانين في الاتحاد الأوروبي تلزم اللاجئ بتقديم طلب لجوئه في أول بلد أوروبي تؤخذ فيه بصماته. إذا أعطيت بصماتك للبوليس الإيطالي سيصبح لزامًا عليك أن تتقدّم بطلب لجوئك في إيطاليا، ولن تقبلك أي دولة أخرى في الاتحاد الأوروبي لاجئًا، وسَتُعَادُ إلى إيطاليا في كل مرة تذهب فيها إلى بلد آخر.

- حسنًا، لقد فهمتُ.

يقول له الرجل بنبرة صادقة:

- أنصحك أنْ تغادر هذا المكان فورًا، أهل هذه البلاد سئموا أمثالنا، تكاثرنا عليهم كتكاثر الهموم على قلوب أهلينا وراء هذا البحر الكبير، أربكنا لهم حياتهم بما يكفي لكي يكرهوننا للأبد!

يقول دون تفكير:

- أنا ألتمسُ لهم العذر.

- اتجه ناحية الشمال. كلما توغلتَ شمالًا أكثر زادتْ فرصتك في حياة أكرم، هذه هي حكمة هذا الزمان.

يرمقه عاصف بطرف عينه، تأخذ نظرته طابع الحياد، كأنَّه يحادث الفراغ أو يلقي مونولوج تدرّب عليه كثيرًا. يحتاج عاصف أنْ يعرف الكثير عن هذه البلاد. مازالتْ أهوال عبوره البحر

تسيطر عليه. يحتاج لشخص يطمئنه بأَنَّ هذه البلاد تستحق فعلًا عناء هذه المغامرة الكبيرة.

يقول له مسترسلًا في مونولوجه بينما يعبث بقشة صغيرة على الأرض الصلبة:

- أنت وأنا وغيرنا مِمَنْ ركب مخاطر البحر حاملًا روحه الخَرِبَة بين كفيه مِن أجل فردوس أرضي قد تعرضنا لخداع كبير، خُدِعْنَا برغبتنا، خُدِعْنَا لأنَّه لم يكن هناك خيار آخر، كان علينا أنْ نصدق هذه الأكذوبة لكي نأمل في خلاص أرضي ونستمر في الحياة...

يسأله عاصف مقاطعاً:

- كيف أخرج مِن هذا المكان؟ أريد أنْ أصل سريعًا إلى فرنسا.

يصمت الرجل لبرهة:

- تدفع رشوة للحارس وللمهربين.

- هنا أيضًا تدفع رشاوي رشاوى؟!!

يضحك فتبين أسنانه المُصْفرَّة والمتباعدة، يهمس:

- أوروبا هذي قارة عظيمة تحرسها قيم ومبادئ ومواثيق عظيمة !

يصمت لبرهة ثم يستطرد:

- لكن هذه المنظومة لم نصنعها نحن، ولم تُصْنَع لأجلنا.

إنْ أردتَ العيش هنا عليك أنْ تخرق هذه المنظومة، عليك أنْ تدوسَ بقدميك القذرتين على مبادئها دون أنْ يرف لك طرف جفن؛ لأنك بكل بساطة غير مُهَيَّأ للعيش وفق منطقها، أنت صنيعة منطق آخر، منطق مِعْوَج وكسيح!!

يأخذه مِن يده ناحية الحارس الذي ينتحي جانبًا عندما يرى الرجل وعاصف يتقدمان نحوه. يدفع عاصف ثلاثمائة يورو مِن مبلغ كان يخبئه في جيب سرِّي خَاطَهُ داخل بنطاله مقابل إخراجه من المعسكر وتوصيله حتى مدينة فانتيميليا، حيث يمكنه التسلل إلى فرنسا، يقول له الرجل:

- عندما تصل باريس اسأل عن حي اسمه "لاشابيل"، هناك ستشعر بأنك في الخرطوم بكل رزالاتها، وستجد من يساعدك في ترتيب أوضاعك.

يتسلل برفقة الرجل مِن المعسكر، يقوده للساحة التي لا تبعد كثيرًا عن الميدان لينتظر المهرب الذي سيقوده إلى فانتيميليا. يجلس عند طرف الساحة في المكان المتفق عليه. بدأ الليل في الزحف بطيئًا، يعبر الساحة كثيرٌ مِن الناس العجلين، رغم كثرة المشاة على أطراف الميدان لكن يَحِسُّ نفسه وحيدًا في مكان موحش ومقفر، لا تزال الأحاسيس الغريبة تطارده، لا يألف هذا المكان، لا شيء يميزه سوى اللون الرمادي الباعث على الاكتئاب، الفضاء كله رمادي بائس: السماء، الأرض، المباني، الإسفلت، الوجوه والملابس!! تحسس العِصابة الحمراء في يده بضجر، يحاول أن يسيج الذكرى التي تهيم في عقله بجنون، إنه يراها

الآن بوضوح لكنه ليس متيقنًا من حدوثها، يذكر عند خروجه من البحر بصحبة رفيق رحلته مامادو حميدي الذي كان يحمل ساطورًا يقطر دمًا، أحاط بهما جنود غامضون عندما وطأت أرجلهما العارية رمال الشاطئ، لا يتكلمون ويرتدون ملابس عسكرية تنتمي لعصر سحيق، أخذوهما مكبلين إلى المنتدى الروماني الذي كان يعج في تلك اللحظة بحشد كبير مِن سكان روما. يفكُّ الحارس الضخم أصفاد عاصف ومامادو ويدفع بهما وسط الحشد الكبير ليتكشف لعاصف، عندما يعبران الحشد، منصة كبيرة يجلس عليها ثلاثة أشخاص مهيبون وعلى يسارهم يقبع قفص كبير أُدْخِل فيه عاصف ورفيقه. طرق الشخص الذي يجلس في المنتصف بمطرقة كبيرة على الطاولة؛ فصمت الحشد تمامًا، لحد أنَّ الأنفاس وضربات القلوب أضحت مسموعة. أنه إنه القاضي بوكاتشيو المهاب، يسأل بنبرة محايدة:

- حميدو مامادو، لماذا عبرتَ البحر نحو بلادنا؟

يجيب حميدي والساطور الذي يقطر دمًا لا زال ملتصقًا بيده:

- لأني مظلوم في بلادي ومضطهد، وأبحث عن الحماية في بلادكم.

يطرق القاضي لوهلة قبل أنْ يقول:

- حسنًا، ولماذا تمارس الظلم والاضطهاد على غيرك؟

- لم أظلم أحدًا.

- لكنك رميتَ بالمسيحيين الذين كانوا معك مِن على ظهر المركب في البحر!

- نعم رميتُ بهم.

- لماذا؟

- لأن تعاليمهم فاسدة.

عندما يقول بذلك يضطرب الحشد ويهيج. يخرج أحدهم، يرتدي مسوح رهبان، يصيح:

- من ترى أنَّ تعاليمه فاسدة هو الذي استلفنا مبادئه وتعاليمه لنُشيّد هذه الحضارة العظيمة التي تبحثون الآن عن الاحتماء تحت رحمة قيمها ومنجزاتها! تدخلون بلادنا عنوة وأنتم تحملون بين ظهرانيكم أرواحًا خَرِبَة وعقولًا متهرئة ودينًا متعفنًا، تريدون بإصرار سخيف أنْ تلوثوا به نقاء حضارتنا الجليلة!

يخرج أيضًا مِن وسط الحشد عامل قذر الثياب، يحمل في يده مطرقة، يهتف:

- أنتم تغزوننا مثل الجرذان السوداء حاملة الطاعون، أصبحتم في كل مكان مِن مدننا وقُرَانا، تخوضون المتوسط كما يخوض طفل يحبو جدول ماء صغير لتنزعوا العمل مِن عُمَّالنا بأجوركم الرخيصة ونفوسكم التي هي أشد رخصًا.

يبرز ثالث ويصيح:

- إنهم، يا سيادة القاضي بوكاتشيو، ينتهكون لغاتنا بطريقتهم الهمجية في تحدثها. سهرنا على لغاتنا وهذَّبْنَاها بآداب عظيمة ليأتي هؤلاء البرابرة فيرموا بها في أسفل سافلين!

يبرز رابع ويصيح بصوت غاضب:

- إنهم يستحوذون على بعض نسائنا الضالات اللائي تجذبهن عفونتهم وبربريتهم، تبًا لهم وتبًا لهن!

يضرب القاضي بوكاتشيو بالمطرقة فيصمت الحشد، يهمس لجاره الذي عن يمينه ولجاره الذي عن يساره ثم يقول:

- حكمنا عليك يا مامادو بالإعدام قصاصًا لأرواح الذين رميتَ بهم في البحر عمدًا.

ثم ينظر لعاصف ويخاطبه:

- أنت يا عاصف قد تواطأت معه. لماذا لم تمنعه؟ أنت تتحدث لغته، كان يمكن أنْ تمنع الذي حدث.

يحاول عاصف أنْ يتكلم، لكن الكلمات تجوس في أمعائه مثل هواء فاسد وتأبى خروجًا، يحاول بيأس أنْ يدفع بها خارجًا لكنها تعلق في حلقه، ويحس بالاختناق فتدمع عيناه، يصيبه عجزه عن التحدث بالرعب.

- نظرًا لأنك تسللتَ إلى بلادنا دون رغبتنا؛ فقد حكمنا عليك بأن تُنْفَى خارج الأرض.

ينهض القاضي ومساعده، يضطرب الحشد ويعلو هتاف الاستحسان. يفتح الحارس القفص الحديدي ويخرج مامادو، ثم يضع عِصابة حمراء على رسغ عاصف، ويدفع بهما أمامه نحو نفق معتم!

يسحب عاصف نفسًا عميقًا، يجول بنظره في أرجاء الميدان البائس، ينتظر بضجر حضور المهرب، يتساءل في ذات نفسه: لما تسيطر عليه هذه الذكرى؟، إنها تبدو كامتداد له في زمان آخر، إنها لا يمكن أن تكون جزءًا من حياته الراهنة، يحاول أن يتخلص منها، أن يرمي بها في جحيم النسيان، لكن العِصابة الحمراء المعقودة على معصمه تبقيها متقدة كجحيم أبدي، يفكر في انتزاعها. تقعي قطةٌ سوداء سمينة تحت المقعد، تَحُكُّ رأسها بقائمها الأمامي مرارًا. يحاول عاصف أنْ يقضم العِصابة بأسنانه لكن دون جدوى. كانت مادة العِصابة طرية لكنها متينة. يرى بازارًا في طرف الساحة، يذهب ليشترى منه مقصًا صغيرًا ثم يعود للجلوس على المقعد. تقرفصت القطةُ السوداء على قوائمها الأربع، يستلَّ عاصف المقص مِن صندوقه، ترفع القطة رأسها بفضول. عندما يتحسس عاصف العِصابة الحمراء تشرع القطةُ في المواءِ، عندما يضع عاصف العِصابة بين مشفري المقص تهتاج القطةُ، تنتفش وتصدر مواءً مخيفًا، ثم تقفز نحوه بقوة، عندما أفاق عاصف من صدمة المباغتة كانتِ القطةُ قد اختفتْ، واختفى معها المقص!!!

الفصل الثالث

كْـنُـوشَـار

يصل عاصف منطقة لاشابيل صباحًا بعد رحلة طويلة وشاقة مِن فانتيميليا حتى باريس، عبر خلالها غابات وجبالاً، وسار على قدميه لكيلومترات كثيرة في طقس سيئ. الوقت صباح باكر، يضع خطواته الأولى على شارع ماركس دورموى، يرى الآلاف مِن المهاجرين يلتصقون بحوائط المباني، ويضعون عليهم أغطية وملابس، فالبرد على أشده، بعضهم يقف في صف طويل جدًا، ينتهي عند متطوعين يوزعون سندوتشات صغيرة ومشروبات ساخنة في ساحة لاشابيل، وبعضهم يتبولون وقوفًا على سور حديقة لويز دو مارياك، بعض منهم ينام في الحديقة، داخل خيام بلاستيكية صغيرة، تسع شخصًا واحدًا، البعض الآخر ينتشر تحت الفضاء الذي ينشئه خط المترو المعلّق. تفوح مِن المكان روائح البول والكحول والقيء. يحس كآبة طاغية ورغبة في التلاشي. يقف في صف الطعام، فقد كان جائعًا، أمامه أكثر مِن مائة شخص. يتقدم الطابور سريعًا يأخذ سندوتشًا وقهوة، يحتاج لحائط يسند إليه ظهره، لكن كل الحوائط على مد بصره تشغلها ظهور مرهقة! يلتهم سريعًا الساندويتش ويحتسي القهوة، ثم يفكر مِن أين يبدأ، يحاول أنْ يكرر على نفسه لِمَ هو هنا: أتقدم بطلب لجوء، أحصل على الحماية، تمنحني الحكومة الفرنسية شقة مريحة، أعمل براتب جيد، أستقدم حبيبتي صفاء التي حتمًا ستسامحني، ونشتري سيارة جميلة، ونمضي بقية العمر في التنقل عند كل إجازة بين مُدن أوروبا الساحرة، أظن أنَّه حلم يسير التحقق!

يلقي بالتحية على شخص يقف قريبًا منه، يحييه الشخص دون اكتراث كبير:

- مرحبًا يا صاروخ! متى وصلت؟

- صباح اليوم.

- اذهب عند أخر هذا الشارع يسار الساحة، ستجد شخصًا نحيلًا يجلس على مقعد خشبي اسمه الدكتور طارق، سيشرح لك كل شيء وسيساعدك في أنْ تبدأ! أول شيء يجب أنْ تفهمه ألا مكان للتفاؤل هنا، أكثر شيء تحتاجه هو الصبر، الله يعينك!!

يتدحرج نحو الساحة وقلبه منقبض مِن البؤس الذي يضرب المكان، شبان ملتصقون بالحوائط يدخنون ويتأملون الفراغ، يحسهم بلا رغبة في أي شيء. يجد الدكتور طارق في مكانه، نحيلًا كأنه راهب منقطع في دير صحراوي، يمسك سيجارة مشعلة بيده اليسري وقلمًا وحاملة أوراق في يده اليمنى، تبدو عيناه غائرتين تحت نظارته الطبية المقعرة، يضع رجلًا على أخرى، يبادر عاصف صائحًا بمودة:

- هلا يا (صاروخ)، تفضل بالجلوس.

يجلس عاصف بقربه مرتبكًا، عندما يشرع في الحديث مرتبكًا يقاطعه الدكتور طارق:

- أنا أعلم لما أنت هنا، لا تقلق سأساعدك في كل مرحلة مِن مراحل طلب لجوئك، لكن عليك أنْ تصبر ...!

ثم يواصل شارحاً:

- ستسجل نفسك أولًا في استقبال مركز (سنتر دو بوا) للاجئين والذي مِن داخله ستبدأ إجراءات لجوئك، ثم يعقبها إيجاد سكن مناسب لك، ولأنَّ عدد المتقدمين للجوء كبير جدًا،

يمكنك أنْ تبحث عن صديق تقيم معه إلى أن يحين دورك، وإذا كنت بلا أصدقاء فستضطر للإقامة في شوارع هذا الحي مثل الآلاف الذين تراهم الآن موزعين في أنحائه!

- غالبًا ما أسكن هنا في هذه الشوارع.

- لا تخف ستتعود على حياة الشارع، إنَّها مسألة ممكنة طالما هناك أُناس يعيشون هكذا. مِن جانبي سأساعدك في كتابة الأسباب التي دفعتك للجوء، وتوضيح المخاطر التي ستواجهك حال إرجاعك للسودان، سأتقاضى عن ذلك ثلاثين يورو، سأساعدك كذلك في كتابة الاستئناف إذا رفض طلبك في المرة الأولى، وسأظل مستشارًا لك في كل ما يتعلّق باللجوء وإجراءاته، ويمكنك الاتصال بي في أي وقت، لا أتقاضى أتعابًا كثيرة، فأنا أتفهّم جيدًا الأوضاع التي تعيشونها. يجب عليك بدءًا التسجيل لدخول معسكر (سنتر دو بوا) لتحصل على مكان فيه بسرعة، المعسكر قريب مِن هنا. إذا بحوزتك أغراض تريد أنْ تحفظها يمكن أنْ تودعها عند أسمريت يماني في بداية هذا الشارع. يمكنك الأكل في المطاعم السودانية فهي رخيصة، وإذا كنتَ لا تملك المال فهنا جمعيات طوعية تقدّم طعامًا مجانيًا، فقط كنْ صبورًا في الانتظار على الصفوف، قد تضطر للوقوف في بعض الأحيان أكثر من ثلاث ساعات للحصول على وجبة!

يصف له دكتور طارق مركز "سنتر دو بوا" الذي يقع قرب محطة (بورت دو لاشابيل)، فيذهب عاصف في الحال لتسجيل نفسه على قائمة الانتظار، كانتْ به رغبة ملحة أنْ يهرب مِن هذا المكان. يتم تسجيله في المعسكر ثم يعود إلى لاشابيل مسحوبًا بقوة القطيع، عليه البقاء، رضي أم أبى، وسط هذه المجموعة

البائسة والتي هي بلا حيلة مثله، إنَّها قَطِيعُه. تمر ساعات قليلة مِن النهار ليجد نفسه وسط الناس كأنَّه موجود هنا منذ الأزل، لم يسأله أحد عَمَّن يكون أو مِنْ أين أتى؛ كأنَّ هناك اتفاقًا ضمنيًّا بينهم بعدم الخوض في المسائل الشخصية، كثير منهم يخجل مِن الوضع المزري الذي يعيشه في اللحظة الراهنة، بعضهم يأتون مِن أُسَر ثرية أو أُسر عريقة في السودان، أمَّا أكثر المتصالحين مع المكان بكل رزالاته فهم أولئك القادمون مِن مناطق الحروب في السودان، فهم آمنون هنا، فالأمن أول مكسب ينالونه مِن هجرتهم، وبهم صبر كبير لبقية مشوار اللجوء. يحييه العابرون ويبتسمون له. عندما يراهم يهرولون نحو ناحية مِن المكان يهرول خلفهم، ويقف معهم في الصف دون أنْ يعرف مسبقًا إلى أين ينتهي ولماذا يقف الواقفون، عندما يسأل مَنْ يقف أمامه أو خلفه عن الذي يحدث، غالبًا لا يجد إجابة. لكن مع الوقت تعلم أنَّ صفوف الصباح الباكر هي صفوف الجمعيات التي تقدّم إفطارًا صباحيًا ومشروبات ساخنة. وصفوف منتصف الظهيرة هي صفوف الغداء، وصفوف المساء هي صفوف العشاء، وبين هذه الأوقات تأتي جمعيات لتقدّم وجبات خفيفة، وتأتي منظمة الصليب الأحمر بعربة مجهَّزة بعدد كبير من الوصلات الكهربية التي يعلّق عليها اللاجئون هواتفهم المحمولة لشحنها بالكهرباء، والعربة مجهّزة أيضًا بجهاز لاسلكي للاتصال بالإنترنت، توزع شفرة الاتصال لمن يرغب في الحصول على خدمة الإنترنت المجاني. وتأتي فتاة فرنسية سمراء تحمل حافظات الشاي والقهوة، وأكياس مكسَّرات على عربتها الداستر الحديثة، تنزل من عربتها، ثم تمدّ طاولات قابلة للطي، تنتصب خلف هذه الطاولات دون أنْ تتدخل في توزيع المشروبات والمكسرات.

تسكن الفتاة الثلاثينية الرشيقة والجميلة خيالات الكثير مِن "المكنات" في هذا المكان، بالطبع لا يستطيع "الصاروخ" أنْ يُسْكِنها خيالاته، فهو عابر وغير متحقق ومجهول المصير، والفتاة الفرنسية راسخة في المكان والزمان. عندما تُوْقِف عربتها السوداء الأنيقة في الساحة، وتخرج منها لتضع أغراضها، سريعًا ما يتجمع اللاجئون ليتحلّقوا حول طاولاتها.

يدرك عاصف سريعًا أنَّ المكان تسكنه الشائعات، وهي طريقة سريعة لتفسير كل ما هو غير قابل للتفسير في اللحظة، قد يكون بعضها حقيقيًا وبعضها مختلقًا، لكن لا أحد يستطيع التمييز، تدور الشائعة في المكان وفي أثناء دورانها يضيف لها البعض ويحذف منها البعض بصورة عبثية. لا أحد يبحث عن الحقيقة، إِنَّه حديث يستهلكونه للتسلية ولتزجية الانتظار الطويل القاسي. وتدور الشائعة أن بلال صاحب مطعم "أنا السودان" متيم بهذه الفتاة الفرنسية السمراء، لكنها تصده باستمرار. يعمل مع بلال خمسة عمال، ثلاثة رجال وفتاتان. يبدءون العمل في الخامسة صباحًا ويتوقفون عند منتصف الليل لينامو جميعًا في غرفتين ملحقتين بالمطعم، يُقال ـ إنَّ بلال يُذّوب لهم حبوبًا منشطة في ماء الشرب دون علمهم، فيعملون مثل أحصنة المزارع، وعندما استغرب أحد العمال هذه الطاقة العجيبة للعمل، كان رد بلال حاضراً:

- الطقس البارد يحفّز على العمل، ألا ترى كيف شيّد الفرنسيون هذه البلاد؟! لا يستطيع حتى الجان الأحمر أن يأتي بمثل هذا العمران في بلادنا الحارة...!!

ولكن لا يَفْهَم لمَ كل مَنْ بالمكان من الراسخين والعابرين يعلم

قصة عقاقير بلال المنشطة، بينما لا يعلم بها العمال أنفسهم؟!

تمضي أَيَّام الانتظار، يحسها عاصف طويلة ومملة حتى ينقطع إحساسه بالزمان، فلم يَعُدْ يعرف في أيّ يوم هو أو حتى في أيّ جزء مِن اليوم هو. يُمضي النهار متنقلًا مِن صف لصف، في بعض الأحيان ينهي صف إفطار الصباح لينتقلَ بعدها فورًا لصف وجبة الغداء، ومِن بعده صف العشاء. أوجد لنفسه مكانًا تحت سِكَّة المترو المعلّقة بين محطتي لاشابيل وستالينغراد. رغم أنَّ المكان قذرٌ وتفوح مِنه روائح البول وبقايا الطعام؛ لكنه أكثر دفئًا مِن غيره مِن الأماكن. أقسى اختبار يتعرض له في محنته هذه هو البرد ثم البرد، إنَّه كائن وحشي بلا رحمة! يُخَبِّئُ بساطه البلاستيكي والبطانية وخِرَق القماش داخل حديقة لويس دو مارياك نهارًا ليخرجها فقط وقت النوم ليلًا. في بعض الأحيان يضعُ أغراضه أمانةً، لا سيما عندما تهاجم البلدية الحديقة لنظافتها، عند أسمريت يماني مقابل سنتيمات قليلة. ثم يمضي النهار متسكعًا في الأنحاء، يجلس بعض الأحيان في محطات "الباصات" أو يدور متأملًا فترينات العرض المطلة على الشوارع الكبيرة، يدخل المتاجر الكبيرة مثل "ليدل أو انتيرمارشيه"؛ لينعمَ بالدفء، وليتأملَ صفوف البضائع التي لا يعرفُ لها أصلًا ولا استخدامًا، يحيره أَنَّ هناك خمسين نوعًا مِن الألبان معروضاً؛ فكيف يختار مَنْ يختار بين هذا الكم الكبير، سيعجز شخصيًا في الاختيار! يتأملُ الوجوه والعربات، الأرصفة والسماء، ولا يرغب في أَنْ ينظر إلى داخله، فداخله مضطرب ومتعكر، يحاول أنْ يهرب مِن نفسه بالغرق في تفاصيل ما يحيط به!

يفهم أنَّ كتلةَ البشر التي تملأ لاشابيل ليس كلهم على درجة

واحدة رغم ما يبدو عليهم مِن تشابه كبير لمَنْ يمرُّ عابرًا بالمكان. إِنَّهم طبقات بينها حدود فاصلة وواضحة، لا يجرؤ على تخطيها مَنْ هم في أسفلها. هناك المهاجرون الشرعيون الذين قَدِمُوا في أوقاتٍ مختلفة للعمل سائقين، أو طبَّاخين في السفارات العربية بباريس، والطلاب القُدَامى الذين استقروا في باريس وأصبحوا فرنسيين يعملون في قطاعات الحياة المختلفة، هؤلاء تجذبهم "النوستالجيا" للمكان، فهنا مطاعم سودانية وأجواء سودانية حميمة، لن يجدوا لها نظيرًا في مكان آخر، يأتون في عطلة نهاية الأسبوع، ولا يحادثون الآخرين كثيرًا، إِنَّهم ينغلقون على مجموعتهم. ثم هناك مجموعة "المكنات" وهم اللاجئون الذين حصلوا على الحماية، ويقيمون في بيوت العُمَّال، مِنهم مَنْ يعمل بينما ينتظر غالبهم أنْ يجد عملًا يناسب تأهيله ويعيش على إعانة الدولة. يأتي هؤلاء لمنطقة لاشابيل بأعدادٍ كثيفة بعد الظهر لأنهم يمضون الفترة الصباحية نِيَامًا. بقدومهم يمتلئ المكان نشاطًا، هم أكثر قُرْبًا مِن المجموعة الثالثة، وهي مجموعة طالبي اللجوء مِن (الصواريخ) ومِن الذين تتعثر إجراءات لجوئهم لأسباب مختلفة. الودُّ قليلٌ بين المجموعة الأولى "والمكنات"، لكنه وفير بين "المكنات" و"الصواريخ".

لا يسلم المكان مِن غزوات يقوم بها البوليس مِن وقتٍ لآخر، وغالبًا تقود البلدية هذه الحملات عندما تصبحُ قذارة المكان لا تُطَاق. يصحو عاصف يومها؛ ليجدَ بوليس البلدية يُطَوّق المساحة الممتدة تحت خط المترو والتي يسمونها مجازًا "الكُبْري". يطلب منهم البوليس أنْ يحملوا أغراضهم؛ ليقومَ عُمَّال البلدية بتنظيف المكان وغسله بالماء والمطهرات، ثم

تقف عربة الشرطة بعد ذلك لتَحْتَلَّ المكان. يعَرِف عندها أَنَّه سيتشرَّد الليلة فبيته أصبح مُحْتَلًّا. يمضي النهار مهمومًا، ويفكر في البرد. ينصحه دكتور طارق بأنْ يتصل بالرقم (115)، رقم طوارئ السكن، بعد الساعة الرابعة فربما يحصل على مكان يمضي فيه الليل. يتسكع بعيدًا عن المكان ناحية نهر السين المقابل للدائرة التاسعة عشرة، الوقت مساء، يحشر يديه داخل جَيْبَي بنطاله، ويتسكع متأملًا المتنزهين في المكان. كانت ترسو مراكب كثيرة على ضفة النهر، وتتوزع أشجار كبيرة بمسافات متساوية على طول الكورنيش، كُلُّ المقاعد المنصوبة على الكورنيش ممتلئة بالعاشقين والمتنزهين. يسير ببطء على الكورنيش، يُبَدِّل نظره بين النهر على يمينه بمراكبه وطيور البجع البيضاء على صفحة الماء، ومراكب السياح الكبيرة، وبين الجالسين على المقاعد عن يساره، ليلمحَ في مقعد غير بعيد رجلًا سودانيًّا أربعينيًّا تتمدد على فخذيه فتاة فرنسية شقراء، إِنَّه سوداني يقينًا، لا يمكن أنْ يكونَ مِن أيَّةِ جنسية أخرى. كان السوداني يمشط شعر رأس الشقراء، بينما هي مسترخية بهناء. يتوقف عاصف عن المسير، يبدو له المشهد رومانسيًا، رغم أنَّ المكان مليء بالعاشقين في أوضاع أكثر جنونًا وصخبًا مِن المشهد الذي يشغله الآن، لكن هذا السوداني يبهره، كيف استطاع أنْ ينالَ هذه الشقراء؟! عندما يفكر في حاله الراهن، يدرك أَنَّه يلزمه سنوات ضوئية لكي يخترق حاجز بؤسه، إِنَّه يأملُ لكنه غير متيقن، عندما يرفع الرجل السوداني وجهه ويرى أنَّ عاصف يحاصره بنظراته يرتبك، ويطلب من شقرائه المغادرة. يستدير عاصف عائدًا نحو لاشابيل. بدأت العِصابة الحمراء تحز معصمه، وعادت الذكرى الغامضة لتعربد في ذهنه، يذكر اللحظة التي فتح فيها الحارس القفص الحديدي

وأخرج مامادو حميدي ووضع عِصابة حمراء على رسغ عاصف، ودفع بهما أمامه ليدخلا نفقًا معتمًا. يعبران النفق الذي يحتشد فضاؤه بروائح الأسماك المتعفنة والرطوبة الملحية، ينتهي النفق عند ساحة الكولوسيوم. عند نهاية النفق ومدخل الساحة يتسلم حارس مُقَنّع مامادو ويتسلم حارس آخر عاصف. تمتلئ صفوف الكولوسيوم الثمانية بالجمهور المتحمس. في أقصى يمين الساحة قفصٌ كبير بداخله أسد بحجم فيل، يزأر الأسد بقوة حتى ترتج أرجاء المكان. في أقصى يمين الساحة ينتصب منجنيق ضخم بارتفاع خمسة صفوف. يُقاد مامادو ناحية قفص الأسد، ويُذْهَب بعاصف ناحية المنجنيق. يتقدم كُلٌّ منهما نحو مصيره. يرفع عاصف رأسه؛ فيرى بين الحشود صفاء ومريم بنته. كانتْ صفاء منتصبة ونظرتها مفرغة كأنَّها تنظر في جُب عميق داخل نفسها، بينما مريم مضطربة وتقضم أظافرها. يصل به الحارس عند المنجنيق. يسلمه للحارس الذي يزمجر بحياد:

- مرحبًا بك يا سيدي، بما أنَّه على يدك هذه العِصَابة الحمراء فأنت منفي إلى خارج الأرض. هيا اصعدْ!

يصعد عاصف بوجل، يرتجف عندما يرى الأسد طليقًا مِن محبسه متجهًا نحو مامادو الذي يزحف على الأرض مستغيثًا. يستل الحارس سكينه ويقطع برتابة الحبل الذي يشد الرامية للأرض ليتحرر الثقل الذي سيدفع الرامية بقوة هائلة. يرتجف عاصف ويصيح لكن صياحه يجوس في داخله ويسمعه هو فقط، برهة وينقطع الحبل لتندفع الرامية بجنون عاصف!

تتزحلق حبات العرق على جبينه رغم اعتدال الطقس، يحس بقوة غاشمة تجثم على صدره، لماذا تعود هذه الذكرى لتعصف

به كل مرة؟!، عندما تجتاحه يصير الكون ضبابيًا ويحلّ على قلبه كل بؤس العالم.

وفي طريق عودته نحو لاشابل، يحاول عاصف الاتصال بالرقم (115) لكنه مشغول باستمرار. عندما يصل لاشابيل يتجه نحو ملجأ أسمريت يماني. بدأ الليل بالدخول والبرد يضرب في الأنحاء. يتكئُ على الحائط، قرب أسمريت، مرهقًا وبائسًا ومكتئبًا، يعبث بالعِصَابة الحمراء التي تحز رسغه، يضغط للمرة الألف زر الاتصال بالرقم (115) آملًا الحصول على مأوى ليمضي هذه الليلة، لكن الرد الآلي، الذي يخبره دون كللٍ بأنَّ الخط مشغول، يصيبه باليأس. البرد يزداد شِدَّةً، يحسُّه مِن تحت ملابسه الثقيلة قاسيًا ومنهكًا. يحلم بحوائط تستره، بمكان يؤويه. كانتْ أسمريت تتشاغل بترتيب ملابس على حجرها، يضيء وجهها النحيل والمنهك بالرجاء، تهمس:

- مساكن الـ (115) ليست حلًا، عليك أنْ تعتادَ على الشارع فهو أرحم!

- عن أية رحمة تتحدثين؟!، البرد سيقتلني!

- ارتدِ ملابس جيدة وستعتاد... أنت لا تعرف أي جحيم ينتظرك في ملاجئ الـ (115) ...!!

الفصل الرابع

قـلْـوْسَـرِي

نعم سيدي، أعلم أنَّ بعض المفردات التي يستخدمها الكاتب في الرواية ستُشْكِل عليك، فهي إمَّا مفردات جديدة لم تسمع بها مِن قبل، وإما مفردات قديمة لكنها اُسْتُخْدِمَتْ بمعنى جديد. وبما أنّي أعمل وسط المهاجرين واللاجئين فهذه المفردات مألوفة لديّ وأستخدمها كثيرًا في نطاق عملي بوصفي مترجمًا. أنْ ينتقل مئات الآلاف مِن السودانيين مِن مناطق مختلفة في السودان عبر طريق هجرة طويل ومضنٍ؛ ليهبطوا أخيرًا هنا في فرنسا التي كل تمثلاتهم عنها أنَّها بلد الشقراوات الفاتنات اللائي يشاهدوهن في أفلام البورنوغرافيك، إنَّه حِراك ضخم ويتمُّ في ظروف صعبة ومعقدة، فَمِن الطبيعي أنْ ينشأ عنه حقل مفردات لغوية جديدة، وأنْ تتوسع الحقول الدلالية لبعض المفردات القديمة لتستوعب تصوراتهم وتعاملاتهم اليومية في بلد يجهلون لغته وثقافته الحياتية تمامًا. فهم يستخدمون مثلًا مصطلح "كَبَّة" لتسمية المساعدة المالية التي تمنح شهريًا لطالبي اللجوء. أصل الكلمة هو فعل "كبَّ" وهي دارجية سودانية تعني "صبَّ" في العربية الفصيحة. و"الكبَّة" نوعان: الأولى تعرف ب "ADA- aide pour demandeurs d'asile" وهي تُمْنَح لطالب اللجوء طوال فترة إجراءات اللجوء، وتتوقف عند حصوله على الحماية، أو عند الرفض النهائي لطلب لجوئه، وتبلغ قيمتها حوالي ثلاثمائة وستين يورو، والثانية تعرف ب "RSA- revenu de solidarité active" وهي تُمْنَح للأشخاص الذين حصلوا على الحماية، ووقَّعوا عقد الاندماج في الجمهورية الفرنسية، وسجلوا أنفسهم في مكتب التوظيف استعدادًا لإدماجهم في سوق العمل، تبلغ قيمتها حوالي خمسمائة يورو. نعم يا سيدي إنَّها مبالغ تافهة

بالنسبة لكم هنا في فرنسا؛ لكن لك أنْ تعلم أنَّ مبلغ "الكبَّة" يعادل مرتب بروفيسور في الجامعات السودانية!

إذا مررتَ ذات يوم بمنطقة لاشابيل وأنت على مترو (2) ونظرتَ مِن أعلى، قبل دخول القطار لمحطة لاشابيل قادمًا مِن محطة "ستالينغراد"، ووجدتَ صفوفًا طويلة مِن الأفارقة رثَّة الملابس، يبصقون على الأرض كيفما اتفق، يشتمون بعضهم البعض، يزعقون برعونة على هواتفهم المحمولة، ورأيتَ أنَّ هذه الصفوف تلتصق بماكينتي الصرف الآلي المنصوبتين عند ناصية مكتب بريدفيليب دو جيرارد المطل على بولفارد دو لاشابيل فاعلم أنَّ "الكبَّة" تَمَّ إيداعها في حسابات اللاجئين. عادة ما يتمُّ إيداع "الكبَّة" خلال الأسبوع الأول مِن الشهر، ولسحبها يستخدم طالبو اللجوء بطاقات بنكية تتعطل تلقائيًا إذا تَمَّ إدراجها داخل ماكينة الصرف أكثر مِن ثلاث مرات في الشهر، لذا يأتي كُلُّ اللاجئين السودانيين المنتشرين في منطقة الإقليم الباريسي إلى هذه الماكينة تحديدًا لاعتقاد يسود في أوساطهم بأنَّها مباركة وتتقيأ "الكبَّة" عند أول محاولة، وتجنبهم مخاطر تعطل بطاقاتهم عند تكرار المحاولات.

يستخدم اللاجئون السودانيون فعل "يَفِخُ" وتصريفاته: أفَخ، يفَخْ، نَفِخ، فَخّوا، أجد أن الفعل طريفًا، فهو يختصر جملة طويلة "أنْ تركب وسائل النقل العامة دون شراء بطاقة صعود، وتصبح بذلك معرضًا للإيقاف بواسطة شرطة النقل العام التي ستصدر في حقك غرامة آجلة السداد ترسلها إلى عنوانك البريدي"، لا يا سيدي، ليس للفعل أصل لا في العربية الفصيحة، ولا العامية

السودانية، كما أنَّ لفظ الفعل لا علاقة له بمعناه، ولا غرابة في ذلك لأن العلاقة بين الدال والمدلول لمعظم العلامات اللغوية هي في غالب الأحوال، كما يقول "دو سوسير"، علاقة اعتباطية. المؤسف أنَّهم لن يدفعوا هذه الغرامات أبدًا لأن معظمهم تقدّم بأكثر مِن طلبٍ للجوء في مُدن مختلفة بهويات مختلفة، ويُعْرَف ذلك في أدبياتهم ب "الحَفِر". عندما يتقدم أحدهم بطلب لجوء في فرنسا يتم تسجيل طلب لجوئه، ويمنح "شهادة طلب لجوء" تُسَجّل فيها بياناته الشخصية والمحافظة التي تقدم فيها باللجوء، وعنوان مركز إيواء اللاجئين الذين يسكنه أو المنظمة التي تشرف على طلب لجوئه في حالة أنَّ الشخص بلا سكن واضح، مع صورة شخصية في الأعلى، وتصبح هذه الشهادة بمثابة هويته الشخصية التي يبرزها عند الضرورة؛ إذًا عندما يتقدم بطلبات لجوء في مدن مختلفة - أي يحفر حُفَرًا مختلفة- يصبح له أكثر مِن هوية يستخدم واحدةً منها لارتكاب المخالفات، ويرمي بها عندما تنتهي مدة صلاحيتها، لذا فهو (يَفِخُ) آمنًا مطمئنًا لأنَّ الغرامة عندما تُرْسَل سَتُرْسَل إلى شبح فتضيع للأبد..!

لماذا يحفرون؟ وكيف يفعلون ذلك؟ إنها أسئلة جيدة يا سيدي. يفعلون ذلك لكي يضاعفوا (الكَبَّة)، فَمَنْ يتقدم بهوية واحدة ينال ثلاثمائة وستين يورو ومن (يَحْفِر) ثلاث (حُفَر)، أي يتقدم بثلاث هويات مُلَفَّقَة سيحصل على ثلاث (كبَّات) أي ما مجموعه ألف وثمانون يورو، وهو ما يعادل مرتب مدير تنفيذي لشركة كبيرة في بلادهم البعيدة!! أما كيف يفعلون ذلك، فالأمر في غاية البساطة. يفعل اللاجئ ما يسمونه (التحريق) الذي

هو مَحْو لبصمات الأصابع، فالبصمات هي الوسيلة الوحيدة المستخدمة في الاتحاد الأوروبي لفحص الهويات فيما يتعلق باللجوء وإجراءاته. فإذا قمتَ بمحو بصمات الأصابع ستصبح لا أحد، أو يمكنك التكاثر لتصبح عددًا مِن الأشخاص بصورة يصعب مراقبتها، ويمكنك أيضًا أنْ تُغَيّر هويتك وقتما تشاء لهوية أخرى لأنَّ المعلومات المُدْرَجَة عنك في نظام البيانات غير قابلة للقياس بدقة، ويمكن التلاعب بها بيسر. هم يخفون البصمات بتعريض أصابعهم لدرجات حرارة عالية، أو حتى باستخدام بعض المحاليل الكيميائية ذات الفعالية العالية. عمومًا يلجأ اللاجئ للتحريق لواحد من غرضين: إما أنَّه سبق أنْ تقدّم بطلب لجوء في بلد أوروبي، وأصبح طلبه متعثرًا، ويريد أنْ يتقدّم بطلب جديد في بلد أوروبي آخر فيتوجب عليه في هذه الحالة أنْ يخفي بصماته مِن النظام الأوروبي الموحد للبصمات (أوروداك)، لأنَّ قوانين الاتحاد الأوروبي تمنع طلب اللجوء في بلدان مختلفة في الوقت ذاته، وإما أن طالب اللجوء يريد أنْ يُضَاعِف كبَّته بـ(حفره) لعدد مِن (الحفر)!

إنَّه عالم لغوي يزدهر جدًا. مثال آخر: يُوصف المهاجر غير الشرعي الذي وصل توًا مِن إيطاليا بـ (الصاروخ)؛ لأنَّه يهبط فجأة دون مقدمات، وربما يسبب كثيرًا مِن الإزعاج، وكثيرًا مِن الأضرار بسبب جهله بالكثير من الأمور. تواجهه صعوبات جمّة في تدبير حياته في الأيام الأولى، يطرح الكثير مِن الأسئلة، يكون مشوشًا، يجلس مُحتارًا طوال اليوم في المقاعد المرصوصة على أطراف الميدان الواقع عند نهاية شارع باجول وبداية بولفارد

دو لاشابيل، يتأمل مؤخرات الفرنسيات التي تشدها بنطلونات الجينز الضيقة، مرددًا باستمرار: ياخ البلد دي عجيبة...!!1 أما لفظ "مَكَنَة" بمعنى "ماكينة" في اللغة العربية الفصحى فيطلق على اللاجئ القديم الذي استكمل كل إجراءات لجوئه، وحصل على الحماية وينتظر بيأسٍ مفرط في واحد مِن المساكن العمّالية في المدينة أنْ يتمَّ إدماجه في سوق العمل، وفي المجتمع، وهو إدماج صعب في معظم الحالات.

ينتشر اللاجئون في أمسيات الصيف الحارقة على أطراف هذا الميدان لينتظروا مرور الفتيات المتخففات مِن ملابسهن، ويتأملوا مؤخراتهن الفائرة بسبب الحر والرطوبة، ويداعبوا أعضائهم التناسلية، في الوقت ذاته الذي يمارسون فيه الفحش الذهني. إنَّهم، يا سيدي، ماكينات جنسية تعمل بكفاءة عالية، وفي أقسى الظروف المناخية والنفسية. لك أنْ تتخيلَ، أنهم لحظة خروجهم مِن البحر المتوسط، بعد رحلة قاتلة على مراكب متداعية ورافقتها مِن الأهوال ما رافقتها، عندما يصل الناجون منهم إلى شاطئ البحر يجدون متطوعين مِن جمعيات إنسانية تُقَدّم لهم إسعافات سريعة إلى حين دخولهم مشافي المعسكرات، تقوم بعض المتطوعات بِدَلْكِ أجساد الناجين بكريم مضاد للجفاف. عندما يستلقي السوداني على الطاولة بلا ملابس، يُغَطّي وسطه بمنشفة صغيرة، وعندما تضع المتطوعة يدها المغمورة بالكريم على بطنه، ينتفض عضوه منتصبًا ليرمي بالمنشفة بعيدًا، تصيح المتطوعة:

١- « يا أخي، إن هذه البلاد عجيبة»...!!

- واووووو... يا إلهي!! كيف يمكن أنْ يحدث ذلك؟!!

هي تعتقد أنَّه على حافة الموت. لكنه يعطي إشارة حيوية جامحة ومذهلة! ذات مرة، في مركز لإيواء اللاجئين في شرق باريس، سألتْ المرشدة الاجتماعية طالب لجوء سوداني، يتم استقباله في يومه الأول، قادمًا مِن الشارع الذي أمضى فيه أسابيع متشردًا، سألته إنْ كان يحتاج مقابلة معالج نفسي، نظرًا للظروف القاسية التي رافقته في طريق هجرته، وللمناظر البشعة التي رآها، وللاضطهاد والعنف الذي تعرض له في بلده، يرد عليها:

- أنا بخير، فقط أحتاج أنْ أقابل طبيبًا بصورة عاجلة.

- مما تشكو؟ أسألك لكي أوجهك للطبيب المناسب.

خفض رأسه وقال:

- عضوي التناسلي منتصب منذ يومين، فشلتُ في أنْ أتخلّص مِن انتصابه بكل الوسائل، إنَّه يؤلمني الآن بصورة لا أطيقها.

اتصلتْ المرشدة، وهي تكتم ضحكتها، بخدمة الطوارئ الطبية، وجاء الإسعاف وأخذه للمستشفى. إنَّه أمر مضحك فعلًا، لا تتأسف. أنت طبيب نفسي وتعرف أنَّ هذا مذهل! مِن الطبيعي أنْ مَنْ يمر بظروف مماثلة يكون بلا رغبة جنسية، لكن هؤلاء الأشخاص استثنائيون. إنهم آلات جنسية فادحة تعمل في كل الظروف.

سمعت بمفردة (صاروخ) للمرة الأولى مِن آن-صوفي التي كانت تعمل حينها متطوعة في منظمة ترعى اللاجئين تقع في

شارع فلاندر في الدائرة التاسعة عشرة مِن باريس. كنتُ أمرُّ على المنظمة نهاية كل يوم عمل، فالشركة التي أعمل بها تقع في الشارع ذاته، لأترجم لهم بعض الإعلانات أو المستندات لتكون متاحة باللغة العربية للاجئين السودانيين. رغم أنَّ موجات الهجرة هذه تزعجني بصورة شخصية، لكن رأيتُ أنْ أسهم تطوعًا بالقليل مِن الجهد لجعلها أقل ضراوة. كنتُ أرى آن-صوفي تتجوّل طوال المساء بين المكاتب والوحدات التي تقدم خدمات مباشرة للاجئين، فكثير منهم وخصوصًا القادمين حديثًا يكونون بلا مأوى؛ فتتيح لهم المنظمة حمامات للنظافة الشخصية وأماكن لغسل وكي الملابس، وصالة مخصصة للكمبيوترات المتصلة بالإنترنت، ولشحن الهواتف المحمولة لتيسر لهم التواصل مع ذويهم، وهناك قسم للمساعدة في بدء إجراءات تقديم اللجوء، أو مساعدة أولئك الذين يواجهون إشكالات إدارية في نظام إداري معقد وتطول فيه الإجراءات لسنين، كما أن هناك أيضًا قسمًا للدعم النفسي. أثناء وجودي أرى آن صوفي تنتقل مِن مكان لآخر طوال الوقت، وتتساهل جدًا في تعاملها مع اللاجئين السودانيين الذين يملئون المكان، تمازح هذا وتحضن آخر، وتسلم عليه تقبيلًا. بينما كنتُ أحتفظ بمسافة كبيرة بيني وبينهم، لا رغبة لي في أنْ أصبح مستشارًا لمجموعة مِن الرعاع الذين لا يفقهون شيئًا في الحياة المدنية، لا يكفي مجرد عبورهم البحر الأبيض المتوسط أنْ يتحولوا لأناس متمدنين ومتحضرين، للأسف فإنَّ الهوة كبيرة، ولن تُردم هكذا. أنا أتطوَّع لتخفيف وطأة هذه الموجة مِن اللجوء على فرنسا، أساعدها أنْ تتجاوز هجمة البرابرة الجدد الذين يغزونها مستغلين كثيرًا من القوانين

الأوروبية التي بها تهاون وضعف! لا يهمني أمرهم تمامًا، لذا ليس بيني وبينهم تواصل. عندما أصل المنظمة، أدخل مباشرة لمكتب العاملة الاجتماعية، وأتحقق إنْ كانت هناك أوراق تحتاج ترجمة أو أية مساعدة إدارية أخرى. في الغالب آخذ الإعلانات المكتوبة بالفرنسية، ثم أترجمها للغة عربية بسيطة جدًا، وبها كثير مِن المفردات العامية لأنَّ غالب هؤلاء اللاجئين نالوا حدًا أدنى مِن التعليم، وكثيرٌ منهم أميون، أستخدمُ كمبيوترَ موضوعًا في قاعة اجتماعات زجاجية ملحقة بمكتب العاملة الاجتماعية.

أسمع آن ـ صوفي تتحدث معهم بلغة عربية، فيها لكنة شامية مع صعوبة في نطق بعض الأصوات، لكن حديثها في المجمل مفهوم بالنسبة لهم. لكن أجزم ألا دم عربي يجرى في جسدها، أستطيع أنْ أُمَيّزَ ذلك بوضوح؛ فدماؤها أوروبية تمامًا. لوقت طويل لم نكن نتبادل الحديث، تصادفني فأسلم عليها، أو تلمحني فتومئ لي برأسها. كانت طويلة الساقين، مع اكتناز خفيف في ردفيها يكاد لا يُحَسُّ، ترتدي غالب الوقت ملابس رخيصة مِن متجر كيابي وأحذية رياضية. هي مرحة وتحتفظ بابتسامة دائمة تزيدها بهاء، لكن كنتُ أرى أنَّها مِهْزَارة أكثر مما ينبغي، خصوصًا مع اللاجئين، تجلس معهم كثيرًا في أماكنهم، وتصطحب بعضهم بصورة فردية إلى مكاتب الدعم النفسي. بدا لي أسلوبها في التعامل معهم غير مسئول، كيف لها أنْ تقترب منهم لهذا الحد، إنَّها لا تفهم حتى مِن أيّة مجتمعات أتوا! كنتُ كثيرًا ما أحس بالغيظ مِن سلوكها هذا. تطورت علاقتنا مع تكرار قدومي للمنظمة فأصبحتْ تسلم عليّ تقبيلًا، ثم تسألني عن

أحوالي ونتحدث قليلًا عن الطقس ثم يذهب كُلٌّ مِنَّا في حال سبيله. كنتُ لا أجرؤ على دفع علاقتنا للأمام، أخشى أنْ أفقدَ التحكم؛ فينهار تماسكي الذي حافظت عليه سنينَ، ولا أرغب في أن أبتدر علاقة لا أعلم كيف ستكون نهايتها.

لكن ذات مساء خريفي والأمطار تضرب باريس بشدة. خرجتُ مسرعًا مِن مقر الشركة وأنا أحمل واقية المطر إلى أنْ وصلت مبنى المنظمة. دخلتُ فوجدتُ الفناء الداخلي مزدحمًا باللاجئين الذين في العادة يتوزع جزءٌ كبير منهم حول الرصيف الممتد على طول مبنى المنظمة، لكن هطول الأمطار بهذه الكثافة أجبرهم على الاحتماء داخل المباني. شققتُ لنفسي طريقًا وسطهم حتى وصلتُ إلى قاعة الاجتماعات الزجاجية. نزعتُ عني الملابس الثقيلة وعَلَّقْتُها على المشجب، ثم جلستُ في مواجهة الفناء. رأيتُ آن ـ صوفي محاطة بمجموعة منهم يضاحكونها، ويرتمون عليها بعفوية مُدَّعاة، وترتمي بدورها نحوهم، أرى أنه مزاح فَجّ. بعد برهة تخلصتُ منهم ودخلتُ إلى القاعة حيثُ أجلس، صاحتْ بمرحها المعهود:

- يا له من طقس فاسد...!!

قلتُ لها:

- إِنَّه موسم الأمطار؛ فالأمر متوقع!

- لكن كثيرًا ما نأمل ألا يقع المتوقع خصوصًا إذا كان أمرًا سيئًا.

جلستْ على طرف الطاولة بالقرب مني، ورفعتْ كلتا يديها؛

لتسحب شعرها الأشقر إلى الوراء فبرز نهداها بشكل لا يمكن تجاهله. ارتبكتُ في داخلي، لكن اجتهدت لكي أحافظ على تماسكي الظاهري. ازدردتُ ريقي بينما هي تنظم في شعرها، قلتُ لها:

- هل تسمحي لي أن أناقشك في مسألة ربما تكون شخصية!!

قالتْ دون أن تبدي اهتماماً:

- تفضل، نحن على كل حالٍ زملاء.

صمتُ لبرهة، فكرتُ ربما تكون حماقة مني أنْ أتدخل في شأن يخصها، لكنها يجب أنْ تفهم:

- أرى أنَّكِ تتساهلين في تعاملك مع اللاجئين هنا.

رفعتْ رأسها بدهشة وقالت:

- ماذا تعني بـ " تتساهلين"؟

تداركتُ سريعاً:

- أعني أنك تسلمين عليهم تقبيلًا، وتحضنين بعضهم، وتمزحين معهم، أنا أعلم صدق نواياك.

أجابتْ بانشراح يوحي بأنَّها لم تتضايق مِن سؤالي:

- ما الغريب في هذا الأمر؟!. إنهم "صواريخ" ويحسون بوحشة شديدة، أحاول أنْ أشعرهم بأنَّهم مُرَحبٌ بهم في بلدنا.

سألتها مستعجباً:

- ماذا تعني بـ " صواريخ "؟

قالت بفخر لم أفهم دوافعه:

- إنهم المهاجرون القادمون حديثًا إلى فرنسا!

قلت لها:

- الذي تظنين أنَّه تودد أو لطف، يمثل في عرفهم فعلاً جنسيًّا مكتملاً!

ضحكتْ وهي تنهض:

- لا يهمني. لكن أظنك تغار منهم؟

قلت متفاجئاً:

- ولمَ أغار منهم؟

انحنتْ نحوي حتى أني رأيتُ نهديها يجوسان بحرية في تجويف قميصها، وسَّعَتْ مِن حدق عينيها بصورة آسرة وهي تقول:

- أنت تشتهيني، أرى ذلك في عينيك بوضوح!

الفصل الخامس

115

ويجلس عاصف مقرفصًا قرب اسمريت يماني، ويكرر اتصاله برقم طوارئ السكن 115، البرد يحاصر المكان. تحكي له أسمريت كيف مضتْ الأمور في المرة التي حصلت فيها على سكن الطوارئ. كانت تجربة قاسية، ولا تنوي خوضها مَرَّة أخرى. كانتْ أيامها الأولى في باريس مرعبة، وجدتْ نفسها تائهة في مدينة كبيرة وسط ملايين البشر، لكنها رغم ذلك تحسُّ بأنَّها في أقسى وحدة تشهدها، طرقتْ كل الأبواب وكان الردُّ دائمًا جاهزاً: اتصلي برقم طوارئ السكن (115) وسيدبرون لك مكانًا تمضين فيه الليل. عندما تحاول في مرتها الأولى، تمضي أكثر مِن ساعتين وهي تُحَاولُ، الرقم المشغول دائمًا كأَنَّ باريس بأجمعها مشردون بلا مأوى، في نهاية المطاف تحدَّث معها الموظف، قام بتسجيل بياناتها الشخصية بوصفها مشرَّدة مِن غير سكن، واعتذر لها بِأَنَّ كُلَّ الأماكن مشغولة في دائرته، لكن عليها المحاولة غدًا. البرد يهصر صدرها، تحسُّ أنَّ ظهرها سيتهشم، تحسُّ أنَّ رئتيها تمزقهما أنصال حادة، جلستْ عند رصيف شارع جان جوريس، رغبتها العظيمة في البكاء تمنعها مِن البكاء، تخنقها، لمَ الإنسان في كَبَدٍ مثل هذا؟ تقف قُبَالتها عربة تتبع الصليب الأحمر، ينزل منها شاب صغير ليقول لها بإنجليزية بسيطة:

- مساء الخير، إنْ كنتَ بلا مأوى؛ فلدينا متطوعون مِن الممكن أنْ يستضيفك أحدهم لبعض الوقت.

تشير برأسها موافقةً، ثم تنهضُ وتنفجرُ بالبكاء، يمسك بها الشاب الصغير ويُحَاول تهدئتها، ثم يطلب مِنْها الصعود للعربة،

تحرَّكتِ العربة لتتوقف بعدها في موقف للسيارات، ثم يبدأ الشاب ومَنْ يعاونه بالاتصال بأشخاص كُثُر، وفي كُلِّ مرة كان ينظر لها ثم يواصل الحديث، ثم تحرَّكتِ العربة أخيرًا وبعد وقتٍ قليل توقفت أمام مبني متعدد الطوابق، عندما نزلتْ وجدتْ رجلًا ستينيًا في انتظارهما، يقول لها موظف الصليب الأحمر:

- السيد فابريس يتطوع، مِن وقت لآخر، باستضافة بعض اللاجئين الذين هم بلا مأوى، سيستضيفك لبعض الوقت. كل معلوماته الشخصية بحوزتنا، وتَتِمُّ هذه الاستضافة بعلم السلطات الفرنسية. طابتْ ليلتكما.

يأخذها مسيو فابريس إلى داخل شقته المكونة مِن غرفتين وصالون، يجلسها على الكرسي في الصالون، ثم يأتي لها ببيجامة نوم ويَأذنُ لها باستخدام الحمام. ينهمكَ لبعض الوقت في إعداد عشاء خفيف ومشروب ساخن، بدا لها رجلًا طيبًا، كانتْ نظرته مطمئنة ولهجته مرحبة، ورغم تقدم سنه البائن، لكنه يمتلك جسمًا قويًا ويبدو رشيقًا. بعد خروجها مِن الحمام تناولتْ الطعام الذي أعدَّه، وحرصتْ ألا تُبْدِي شَرَهًا رغم أنها جائعة بقسوة. الوقت تجاوز منتصف الليل. أعدّ شايًا بنكهة الفراولة ووضعه على الطاولة في الصالون، وطلب مِنها الجلوس، يخاطبها بإنجليزية واضحة:

- استضفتُ كثيرًا مِن اللاجئين لأوقاتٍ قصيرة، وكثير منهم أصبحوا أصدقائي، سأستضيفك لأسبوع حتى تستردي قوتك، وحتى تفهمي أنَّنا لسنا ضدكم وندعم حقكم في اللجوء. أيضًا أتَعَلَّمُ كثيرًا

مِن الأشخاص الذين أستضيفهم، أتَعَلَّمُ عن ثقافاتهم وعاداتهم ويساعدني ذلك على فهم العالم على نحو أفضل. قَبِلْتُ باستضافتك لأَنَّك إريترية؛ إذ لم يسبق لي أنْ استضَفْتُ شخصًا مِن بلدك.

كانتْ أَسمريت مرهقة، وبعد أَنْ استحمَّتْ بماءٍ دافئ استرخى جسمها، وسيطر عليها النعاس بصورةٍ أكبر. لكن مسيو فابريس بدأ معها استجوابًا قاسيًا عن بلدها وعدد سكانها وموقعها الجغرافي، كان لا يحسُّ بها وبرغبتها الملحّة في النوم، تأخذها في كثيرٍ مِن الأحيان غفوة أثناء حديثها لتصحو وتجد نفسها تهرف بما لا تفهم، يستمر فابريس في التعليق وسرد ذكرياته مع أشخاص استضافهم سابقًا، ويقارن بين عادات بلدانهم وعادات بلدها. لا تذكر أسمريت كيف أنتهت المحادثة بينهما في تلك الأمسية، لكنها استيقظتْ صباح اليوم التالي لتجدَ نفسها ممددة على كنبة الصالون وعليها غطاء خفيف، كانت الساعة قد اقتربتْ مِن العاشرة، ترك لها مسيو فابريس مذكرةً على الطاولة كتب فيها:

صباح الخير

سأعود مساءً، سنتعشى سويًا، أتمنى أنْ تطبخي لنا عشاءً إريتريًا، أنا أَتَشَوَّقُ لذلك، يمكنك أنْ تتسلي بغسل الأواني ونظافة الحمام؛ إنْ أحسستِ بالضجر مِن الجلوس وحيدة وبلا عمل...

تحياتي

فابريس

لكنها عادتْ للنومِ مرَّة أخرى واستيقظتْ بعد الظهيرة، تغَدَّتْ وشَرِبَتْ شايًا، ثم انهمكتْ في نظافة الحمام وغسل الأواني التي كانتْ تملأُ حوض الغسيل في المطبخ، وأَعَدَّتْ بما توفر لها مِن ساردين وبهار وخضار "صَنُونَة" وهي وجبة يمنية تعلَّمَتْ صنعها في أسمرا. ثم جاء مسيو فابريس وتعشَّيا سويًا، ثم شرع فابريس مرَّة أخرى في تحقيقه القاسي عن إريتريا، كان يطلب أدقَّ التفاصيل، ويسترسلُ في التعليق لوقتٍ طويل، أرهق الحوار أسمريت أيَّما إرهاق بسبب المشقة التي تجدها في تَحَدُّثِ الإنجليزية، فهي لا تتحدَّثها بطلاقة، وبسبب الطاقة الذهنية العالية التي تنفقها لتفهمَ حديثه، تنامُ مرهقة وتصحو متأخرة؛ لتجدَ أنَّ مسيو فابريس ترك لها قائمة مِن المهام التي يتوجّب عليها إنجازها خلال النهار: غسيل للملابس، وكَيّ للمفارش، ونظافة للشقة، تنظيف موقد الطهو الذي يتراكم عليه الزيت المحترق..! وهكذا تجد نفسها بعد مرور اليوم الثالث لها في الشقة خادمة بطرف السيد فابريس مقابل الأكل والمأوى، كان الاتفاق ضمنيًا وواضحًا. فَكَّرَتْ أنَّها ستقبل ذلك إلى أنْ تحصلَ على أوراقها بوصفها لاجئة. لم تكن الأشغال المنزلية تزعجها فهي تنجزها سريعًا، وتمضي بقية الوقت في مشاهدة التلفاز، أو العبث بهاتفها المحمول، واعتادتْ سريعًا على حب فابريس المفرط للثرثرة في الأمسيات. لكن الأمور ساءتْ عندما أتى ابن فابريس، والذي يدرس في جامعة إقليمية في شرق فرنسا، ويقيم مع والدته المنفصلة عن أبيه.

هبط مساء اليوم الخامس لإقامتها عند مسيو فابريس، وصل

الابن بعد وقتٍ قليل مِن عودة مسيو فابريس مِن العمل، مسك به مِن يده ونادى أسمريت ثم قال لها مُعَرِّفاً:

- أقدم لك أوليفيه ابني. هو شاب لطيف وأنا أحبه. جاء يزورني وسيغادر مساء الغد!

رحَّبَتْ به أسمريت، كان ينظرها مِن تحت أنفه التي يُعَلِّق عليها حلقات معدنية صغيرة، يمتلئ ساعداه بالوشوم الغريبة والمفزعة. كان جسمه رياضيًا أكثر مما ينبغي كأنَّ الأمر يتجاوز مسألة الحصول على جسم رياضي! يُعَلِّق حلقات معدنية صغيرة على شفته السفلى. تناولوا العشاء سويًا، وانصرفتْ بعدها أسمريت إلى غسل الصحون وتنظيف المائدة، كانتْ تسمع حوار الابن والأب ولا تفهم شيئًا فقد كانا يتحاوران باللغة الفرنسية.

عندما انتهتْ دخلتْ إلى الغرفة وتشاغلتْ ببعض الأفكار ثم نامتْ. لكن يد أوليفيه العابثة أيقظتها مرعوبة. انكفأتْ على نفسها بينما يتحدَّث معها بما لا تفهم، الإضاءة مُشْعَلة، كلما مدّ يده نحوها ازدادتْ هي تقرفصًا. تحدَّث معها بإنجليزية مُكَسَّرة، أفهما أنَّها تنام الآن في غرفته، وإذا لم تستجب له فعليها المغادرة الآن، فهمتْ ما يريده وفكرَّتْ أنَّه سيغادر في اليوم التالي، وأَنَّ الذي تفعله يمثل ضريبة حياتها الجديدة التي ستبدأ قريبًا، وستصبح فيها أسمريت متحققة الإنسانية، ضريبة ظلَّتْ تدفعها منذ لحظة وقوفها على الحدود السودانية الإريترية إلى اللحظة التي دخلتْ فيها (تركينات) الرعب على السواحل الليبية، إنَّها الآن في أخر المشوار، وسترمي قريبًا بِعَنَتِ المسيرة في أقصى مكان مِن

ذاكرتها، فلتغض الطرف، سيغادر أوليفيه غدًا وسينتهي كُلُّ شيء! كان أوليفيه يتأمل فيها برغبةٍ سافرة ووقحة. عندما مدَّ يده مرة أخرى نحو صدرها أرختْ جسمها تمامًا، وعندما دفعها لتستلقي على الفراش اندلق جسمها كأنَّه بلا حياة. اعتلاها أوليفيه، كانتْ تحس بالاختناق مِن رائحة جسده النحاسية الزنخة، تسيطر عليها رغبة في القيء. باشرها ثلاث مرات قاسيات في تلك الليلة. لم تستطع النوم كانت تتوقع أنْ يأتيها في كل لحظة. في الصباح كتب لها فابريس قائمة المهام التي يجب عليها أداؤها وخرج. أمضى أوليفيه النهار نائمًا. كانتْ أسمريت تنتظر مغادرته المنزل لكي تستريح قليلًا، لكنه عندما استيقظ أعدَّ لنفسه وجبة خفيفة، ثم جلس يشاهد التلفاز. يعود الأب مساءً ويتحدَّث مع أوليفيه لبعض الوقت، ثم يقول مخاطبًا أسمريت بينما يضحك بهناء:

- قرر أوليفيه أنْ يمكث معنا لبضعة أَيَّام، يبدو أنَّ منزلي أصبح جاذباً!!

فهمتْ أنَّ أوليفيه يريد المكوث لمواصلة لعبته. دخلتْ الحمام ارتدتْ ملابسها كاملة، ثم استأذنتْ فابريس بأنَّها تريد أنْ تتمشى قليلًا، ثم خرجتْ ولم تَعُدْ على الإطلاق!

عادتْ إلى الشارع مرة أخرى. ظلَّتْ تنتقل بين الشوارع ومحطات القطارات بلا هدى، إرهاق الليلة الماضية يسيطر عليها. تتصل باستمرار على الرقم (115) آملة أنْ تُسْتَضَاف لهذه الليلة، وقُرْب منتصف الليل تحصل على فرصة للتحدث مع الموظف الذي أخبرها بأنَّه مِن الممكن أنْ تُسْتَضَاف اليوم في

مركز للإيواء قرب محطة (فال دو فونتينيه) للقطارات. عندما تصل يدخلها الموظف عنبر كبير (دورتوار) كان بداخله أكثر مِن عشرة أشخاص مِن الجنسين، كان المنظر سرياليًّا وعبثيًّا، يترك بعضهم سريره فارغًا ويستلقي على الأرض. يرتدي أحدهم بدلة شتائية ويريه صوفيًّا وشالًا،، بينما يضع على نصفه الأسفل لباسًا داخليًا صغيرًا. تفوح رائحة حشيش (الكانابيس) والسجائر الرخيص والبيرة والكحول والقذارة. جلستْ على سريرها وهي في مِحْنَة مِن أمرها تفاضل بين جحيم الشارع الذي تعرفه، وجحيم مأوى المشردين هذا المفتوح على كُلّ الاحتمالات! وهي في مِحْنَتِها تَقَدَّم نحوها رجلٌ لا يرتدي سوى سروالٍ كبيرٍ، ويحمل عقب سيجارة مُشْعَلًا، يقف أمامها ثم يبدأ في الحديث معها، وهي لا تفهم ما يقول فتصمت؛ فيظن أنَّ صمتها استخفافٌ به، وبحركة سريعة وغاضبة ينزع سرواله ويضع لها عضوه نصف المنتصب في منتصف وجهها، عضوه يشبه دودة عملاقة ميتة ومتعفنة، كانتْ رائحة عضوه أقسى مما يتحملها جهاز أسمريت العصبي فتقيَّأتْ في مكانها، وظلَّتْ تتقيَّأُ على نفسها إلى أنْ أغمي عليها؛ ومِن يومها لم تَعُدْ إلى مساكن الطوارئ على الإطلاق.

******

بعد أَيَّام قليلة يتلقى عاصف رسالة على هاتفه المحمول تخطره بأنَّ دوره لدخول المعسكر قد جاء، وعليه الانتظار أمام بوابة المعسكر ابتداءً مِن الساعة الثالثة ظهرًا، وعليه أنْ يكون حاضرًا وإلا ستضيع الفرصة، غمرتْهُ فرحةٌ كبيرة، ها هي أَيَّام التشرُّد تنتهي أخيرًا سينتقل إلى الدفء، سيصبح عنده مكان

يخصه. ستبدأُ إجراءات لجوئه بصورة عملية، نهض وتوجه نحو "بورت دو لاشابيل" مِن فَوْرِه، سينتظر هناك أمام بوابة المعسكر؛ فهو لا يستطيع أنْ يتصَوَّرَ ضياع الفرصة منه، أي شقاء سيرى! واختار أَلَّا "يفخ" وفضل أنْ يمشي راجلًا. يمرُّ على أسمريت ليودعها، يخطر له أنَّ يسألها:

- لماذا لا تسجلين للدخول للمعسكر يا أسمريت، ربما تحصلين على سكن أفضل؟

- أنا أنتظر أنْ يأتي أخي عبدو يماني، سمعتُ أنَّه في (التركينة) في طرابلس، سيأتي قريبًا وسنذهب سويًا إلى بريطانيا...!

يرتبك قليلًا ثم يرمي لها بالوداع ويذهب عجلًا. ينقبض قلبه ويعشش في صدره البؤس. كان عبدو يماني معه في القارب ذاته الذي ابتلعته أمواج المتوسط، هل نجا مثلما نجا هو أم ابتلعه البحر الكبير؟! وهو في بؤسه وشقائه يقطع له عكاشة لبش الشارع، كان عكاشة أنيقًا ونظيفًا وتفوح منه روائح عطرية حلوة، يضع سلسلةً فضية على عنقه، ويرتدي بدلة سوداء، ويضع نظارات سوداء تخفي نصف وجهه. يمسك بيده كتلة مفاتيح يحركها فَتُحْدِث جلبة خفيفة متصلة.

يقول عكاشة لَبَشْ لعاصف بينما يمسك بالعِصابة الحمراء التي على رسغ عاصف:

- يبدو أنَّ هذه العِصَابة تجذب النساء نحوك!

- وكيف ذلك؟

- هناك فرنسية ترغب فيك!

نظره عاصف بامتعاض:

- هذا شأن يخصها.

- ستدفع لك ...!

- أنت تهينني، أنا لستُ جيغولو!

يمسكه عكاشة مِن كتفه مازحاً:

- هيا اصفع الشيطان على قفاه ولا تتردد!

يكتسي وجه عاصف بالغضب، ثم يدفع عكاشة بيده بعيداً:

- ابتعد عني!

******

يدخل عاصف معسكر سنتر دو بوا، والذي هو عبارة عن نقطة توزيع لطالبي اللجوء على الأراضي الفرنسية. وفهم أنَّه عليه المكوث هنا لبعض الوقت، ربما ثلاثة أو أربعة أيَّام، ثم يُسْتَدْعَى للمكاتب الإدارية الموجودة داخل المعسكر، لتبدأ إجراءات لجوئه بصورة عملية. لا يعرف كم مضى مِن الوقت منذ قدومه إلى باريس، ربما هو وقت قصير بحساب الزمن التراتبي الهندسي، ولكنه زمن طويل جدًا، ومَقِيت بحساب المعاناة التي ذاقها متشردًا في باريس. يفكّر في ذات نفسه أنَّ الحلم الأوروبي قد تشوه في ذهنه، أصبح أقرب للكابوس، بدأتْ نفسه تضيق

ويسكنه اليأس. لكن الآن ينفتح نفاج جديد للأمل، ها هو الآن يرتقي أول درجات السلم؛ فليحشد نفسه بالطاقة الإيجابية، عليه أنْ يتذَكَّر أَنَّه هنا مِن أَجل أنْ يتحقق باعتباره إنسانًا ذا كرامة وطموح. سينال اللجوء وسيعمل وسيأتي بصفاء عبد الرحيم، حبيبته التي مسَّها مِنه ضَرٌّ بليغ، لكنها ستسلو عندما تلحق به!

كان المعسكر عبارة عن مخازن قديمة ضخمة ومسقوفة بالزنك، وُضِعَتْ فيها أجهزة تدفئة وأَسِرَّة وأغطية وحُشِرَ فيها طالبو اللجوء الذين ازدحمتْ بهم شوارع باريس، وجُهِزَّ المكان بحمَّامات متنقلة. واُسْتُخْدِم مخزن كبير باعتباره مطعمًا تُقَدَّمُ فيه الوجبات الثلاث. في اليوم الثاني لقدومه يرى اسمه في قائمة مُعَلَّقة عند مدخل المطعم؛ يفهم مِنها أنَّه عليه مقابلة الإدارة في اليوم التالي.

ينهض في اليوم التالي باكراً؛ للحاق بمواعيده في الوحدة الإدارية في المعسكر التي تضمُّ عددًا مِن الإدارات الفرنسية المرتبطة بالهجرة. عندما يلج إلى صالة الانتظار، يجد المئات مِن الأشخاص جالسين بوجوم كبير، منكب معظمهم على هواتفهم المحمولة. يرتدي معظمهم بنطالونات مِن الجينز الأزرق المتهرئة، يشبه بعضهم البعض بصورة مرعبة رغم أنَّهم مِن جنسيات وسِحَن متباينة جدًا، لكأَنَّ المعاناة شكَّلتْهم على هيئة واحدة! يشيع المكان الكآبة في النفس. في مقدمة الصالة كبائن صغيرة، يجلس بداخلها موظفون يعملون بآلية، لا مشاعر تطفح على وجوههم كأَنَّهم آلات، يخاطبونك كأَنَّهم يخاطبون الفراغ. بعد انتظار ثقيل وسط هذا البؤس يحين دوره، يمرُّ أولًا

على مكتب محافظة باريس والذي تُرَاجَعُ فيه بصماته وبياناته الشخصية، ثم يُحَوَّل إلى مكتب الهجرة والاندماج الفرنسي (الأوفي) في الطابق الأعلى مِن المبنى. يجلس أمام موظفة جامدة الملامح كأنَّها دمية، تعمل بسرعة على كمبيوتر أمامها، تواجهه دون أنْ تنظر إليه، أو كأنَّها تنظر عبره للفراغ، لا تحمل نبرات صوتها أية مشاعر، كان هو الحياد في كامل إطلاقه:

- يُقَدِّم لك المكتب الفرنسي للهجرة والاندماج (الأوفي) عرض كفالة مشروطًا، يرافقك طوال فترة إجراءات طلب لجوئك، يمكنك أنْ تقبله أو ترفضه. يتضمن عرض الكفالة ثلاثة بنود: أولًا يتكفل الأوفي بتسكينك في مركز لإيواء طالبي اللجوء (كادا)، ثانيًا يُقَدِّم لك الأوفي مساعدة مالية شهرية (آدَا)، ثالثًا يُقَدِّم لك الأوفي مرافقة إدارية في كُلِّ إجراءات لجوئك عبر واحدة مِن الجمعيات التطوعية المتعاونة مثل (آيدا) أو (فرانس تير دازيل). أمَّا مِن جانبك فعليك الالتزام بقبول السكن الذي يقترحه لك الأوفي والذي سيكون في أي مكان في فرنسا، وتلتزم أيضًا بمد الأوفي بأي تَغَيُّرات تطرأ على حالتك الاجتماعية مِن زواج أو طلاق أو إنجاب أطفال أو تغيير يطرأ على عنوانك البريدي، أو على مصادر دخلك، كما عليك الالتزام أخيرًا بالحضور لجميع المواعيد الإدارية التي تحدد لك سواء في الأوفي أو المحافظة أو المكتب الفرنسي لحماية اللاجئين وعديمي الجنسية أو أي مواعيد أخرى. هل تقبل هذا العرض؟

- نعم.

قالها بينما يمطُّ العِصَابة الحمراء على رسغه بملل كبير، ثم يفكُّها ليُحْدِثَ اصطدامها بجسمه صوتًا حادًا. يتأمل الموظفة وهي تُقَلِّب بعَزْمٍ الأوراق التي أمامها، بدا له أنَّها تبحث عن شيء ما، تقاطيعها محايدة، كانتْ به رغبة عظيمة في أنْ يعرفَ ما يدور بخاطرها، كيف تراه هي بعيدًا عن واجبها الوظيفي، هل تُرَحّب به في بلدها؟ هل ترى في أمثاله إضافة حقيقية لبلادها؟ أم هل ترى فيه محض عبء يتحمله دافع الضرائب الفرنسي؟ هل ستقبله جارًا لها، تتبادل معه تحية الصباح، وتحدثه عن طقس اليوم المتقلب؟ هل سترحب به صديقًا لبنتها الشقراء ذات الساقين الطويلتين، والعينين الزرقاوين، والنهدين الوثَّابين كتوثب آماله!!

- حسنًا، ستُمْنَحُ مساعدة مالية تبلغ قيمتها ستة يوروهات وثمانين سنتيمًا في اليوم، أي ما يعادل مائتين وأربعة يوروهات في الشهر.

تستخرج مظروفًا مِن الدرج، وتُخْرِجُ مِنه بطاقة بلاستيكية، تمررها على جهاز ليزر متصل بالكمبيوتر ثم تناولها له قائلةً:

- يمكنك سحب مبلغ المساعدة المالية مِن أي ماكينة صرف آلي في فرنسا بواسطة هذه البطاقة الممغنطة. عليك أنْ تسحبَ رصيدك المالي في ثلاث مرات فقط، إذا أدخلتَ البطاقة للمرة الرابعة ستقوم ماكينة الصرف الآلي بتعطيلها وستضطر لاستخراج بطاقة جديدة. عليك الانتظار ما بين شهر وخمسة وأربعين يومًا حتى تستخدم البطاقة، ستُرْسَل لك رسالة على رقم هاتفك تُخْبِرُكَ بأنَّه تم إيداع المساعدة المالية.

تصمت لبرهةٍ، وهي تنظر لكمبيوترها، ثم تقول برتابة مُمِضَّة:

- فيما يتعلق بالسكن، هناك مكان شاغر في مركز لإيواء اللاجئين في قرية سانت لويس، وهي لا تبعد كثيرًا مِن مدينة ستراسبورج، هل تقبل به؟

- نعم!

- حسنًا، ستذهب بعد نهاية هذه المقابلة لمحطَّة قطارات شرق باريس، ستُقَدّم هذا المذكرة في نافذة التذاكر وسيعطونك مقابلها بطاقةَ صعودٍ للقطار المتجه مِن باريس إلى ستراسبورج، وبطاقةَ صعودٍ ثانية مِن ستراسبورج إلى سانت لويس، تأخذهما وتجهز نفسك؛ لكي تغادر غدًا عند الساعة السادسة والنصف مساءً، ستجد موظفًا مِن مركز إيواء اللاجئين في انتظارك عند محطة القطار في القرية. حظًا سعيدًا...!

الفصل السادس

لاشابيل

تحسُّ يا سيدي عندما تدخل منطقة لاشابيل كأنَّك في مدينة إفريقية حديثة، ممتلئة بالتجار الهنود. أنتَ ولدتَ ونشأتَ في هذا الحي الباريسي الغني، ربما لم ترَ أحياءَ باريس الأخرى التي داهمها المهاجرون القذرون كأنَّهم يخرجون مِن بالوعات صرف صحي لا يصلها هواء ولا تضربها شمس! إنَّ الأوضاع أسوأ مما أحدثك به يا سيدي، أنا لا أبالغ. أصبح كثير من الفرنسيين يتجنبون المرور بالمنطقة تفاديًا للمناظر المقززة وللبؤس البدائي. إنَّها في الدائرة الثامنة عشرة مِن باريس. المنطقة كانت قرية قديمة تعود جذورها للقرون الوسطى، وسيعود بها هؤلاء اللاجئون إلى القرون الوسطى قريباً!!

كل شيء سيبدأ عند خروجك مِن محطة المترو. عندما تستدير على يدك اليمنى متخذًا شارع ماركس دورموى، ستصطدم بعشرات الأشخاص مِن سحنات مختلفة يصيحون على بضائع متنوعة يفترشونها على الأرض أو يحملونها على أيديهم ويجعلون العبور عسيرًا على المارة، هنا تحدث أشياء غريبة مِن سرقات صغيرة، وتحسس لأجساد الفتيات العابرات، وإساءات ترسل دون سبب. تحس بالتوتر يرتفع في فضاء المكان، تحسُّه متكومًا وثقيلًا. ترى شابًا سودانيًا يرتدي ملابسَ فضفاضةً، يبدو أنَّه لم يخترها وإنما وُهِبَتْ له، يصيح مناديًا على بضاعته (بورو... بورو... ليكا... ليكا...)، يحمل في يدٍ علب سجائر "مارلوبورو" مغشوشةً ومهربةً، وفي اليد الأخرى بطاقات تغذية رصيد للهاتف تتبع لشركة (ليكا موبيل) وهي شركة هندية تنتشر بطاقاتها بين اللاجئين والعابرين مِن السيّاح، لأنَّ شروط الحصول عليها

ميسرة، فهي لا تطلب مثلًا حسابًا بنكيًا نشطًا مثل الشركات الأخرى. ترى هذا الشاب يصارع ليثبت له موطئ قدم وسط اللاجئين الأفغان ضخام الأجساد، والجزائريين حادي الطباع، والذين يظنون أنَّ فرنسا لهم هم أولًا ثم للفرنسيين ثانياً!! عندما تخرج مِن هذا المعترك ستجد نفسك أمام ساحة لاشابيل التي تتوسطها حديقة صغيرة تُسمى "لويز دو مارياك". لكن بدلًا مِن أنْ يفوح منها شذى الزهور وعبير الورد وروائح كلوروفيل الأوراق الخضراء؛ أصبحتْ تفوح منها روائح الخراء والبول! هي في الواقع أصبحتْ مكانًا لقضاء الحاجة؛ فالعدد الضخم مِن المهاجرين السودانيين والأحباش المنتشرين بكثافة في هذه المنطقة لا يجد ما يكفي مِن الحمامات العامة، لذا أصبحوا لا يهتمون أين وكيف يقضون حاجاتهم، فأصبح مِن المعتاد أنْ ترى مهاجرًا يخرج عضوه ليتبول على طرف الطريق كيفما اتفق ودون أدنى إحساس بالخطأ!!

منطقة لاشابيل كبيرة، واللاجئون يتمركزون في جزء منها. فتجدهم يتجولون في ساحة لاشابيل والشوارع التي تتفرع منها كالجزء الأول مِن شارع ماركس دورموى وعلى امتداد شارع باجول وشارع فيليب دو جيرارد، لكن الأعداد الكبيرة منهم تتمركز في ساحة لاشابيل والساحة المثلثة التي يشكلها التقاء شارع باجول مع شارع فيليب دو جيرارد وأمام المطاعم السودانية المنتشرة في المكان. معظمهم مِن السودانيين وقليل مِنهم مِن الإثيوبيين والإريتريين.

عند دخولك لشارع باجول سترى منظرًا صادمًا لإنسان

متحضر مثلك، سترى فتاة إريترية نحيلة جدًا تدعى أسمريت يماني تتخذ مِن بوابة خلفية غير مستخدمة لإحدى البنايات مسكنًا لها، تشكل البوابة التي شُيّدَتْ على تجويف في جسد المبنى ملجأً ممتازًا. تستلقي أسمريت على مرتبة أسفنجية قذرة وبجوارها مرتبة أخرى، رغم ما تراه مِن بؤسها وقذارتها لكنها محسودة، وكثير منهم يتمنى أنْ يكون محظوظًا مثلها. سأشرح لك. أولًا هي تقيم في موقع استراتيجي يقيها سقوط المطر والبرد ومِن موقعها هذا تمارس نشاطين يدرّان عليها دخلًا معتبرًا، النشاط الأول أنَّها تُفَرّغ جزءًا مِن مخبئها هذا لتستخدمه مخزنًا تضع فيه أمتعة "الصواريـخ" الصغيرة مِن ملابس وأحذية أو أوراق مقابل قليل من المال. النشاط الثاني، وهو نشاط غريب حقًا، هو أنها تمتلك مرتبة أسفنجية موبوءة بميكروب الجرب تدر عليها دخلًا كبيراً! انتظر سأشرح لك الأمر. عندما يصل "الصاروخ" لهذا المكان يكون مرهقًا مِن مشقة الرحلة، فهو قد عبر جبالًا وصحاري وغابات وبحارًا على مدى أسابيع وبعض الأحيان أشهر، ويحتاج أنْ يرتاح قليلًا، لكنه يجد نفسه مشردًا في المدينة، ففي الأيام الأولى عليه أنْ ينتظر حتى يجد فرصة لدخول معسكر (سنتر دو بوا) الذي يقع في (بورت دو لاشابيل) والذي انطلاقًا منه ستبدأ الدولة التكفّل به، لكنه غالبًا ما يكون انتظارًا طويلًا. كانتْ أسمريت في البدء تؤجر المرتبة الأسفنجية للمبيت مقابل يورو واحدًا، لكن لُوحِظَ أنَّ كثيرًا ممن أمضوا ليلةً أو ليلتين على المرتبة قد أصابهم مرض الجرب، لا تعرف أسمريت ما السبب لكنها تقول إنَّها عثرت على المرتبة ملقاة ذات صباح باكر على طرف شارع مِن شوارع الحي. وعندما يرى

أفراد الجمعيات الطوعية شخصًا مصابًا بالجرب فإنهم سريعًا ما يتصلون بالسلطات الطبية الفرنسية التي تأخذ المصاب وتعزله في فندق يقع في طرف المدينة لمدة قد تتجاوز الشهر. وكل شيء نشط عقب عودة هؤلاء مِن رحلة العلاج ووصف الرفاهية التي عاشوها خلال هذا الشهر، وكيف أنَّهم اُستضيفُوا في غرف واسعة بها حمّام داخلي، وكيف تُقدّم لهم وجبات ثلاث مشبعة ولذيذة، وكيف أنهم تخلصوا تمامًا مِن عَنَتِ السفر ومشقته على أسرّة الفندق الوثيرة، ومِن يومها أصبح المبيت على المرتبة الأسفنجية حاملة الميكروب يقتضي حجزًا مسبقًا قد يصل إلى شهر. يحق لكل "صاروخ" أنْ يمضي ليلة كاملة وقيلولة على المرتبة مقابل خمسة يوروهات يضعها أمانة عند جلال جقاجق صاحب مطعم "أنا السودان"، إذا نجح في التقاط المرض تتسلم منها أسمريت أربعة يوروهات، وإنْ فشل في التقاط المرض يُرجع له مبلغ الخمسة يوروهات. لا تضحك، إنهم مُعَدُّون لمثل هذه الأشياء!!

ثم على بُعد خطوات مِن ملجأ أسمريت يماني، وعلى الجانب الآخر مِن الشارع ترى شابًا سودانيًا يُنادي (مآييس.. مآييس)، فهو يبيع الذرة الشامية التي يشويها على موقد فحم يضعه على عربة تَسَوُّق تخص متاجر انتيرمارشيه، مطبوع عليها بالفرنسية شعار المتجر الشهير "متضامنون معًا ضد غلاء المعيشة". يتناثر مِن حوله الفحم وأوراق قناديل الذرة الشامية الصفراء! ثم بالقرب منه ترى شابًا إريتريًا يعرض كتبًا موضوعة فوق الأرض على فرش مِن البلاستيك، يعرض بالأحرى نسخًا عديدة لكتاب واحد مطبوع على ورق طباعة مكتبي عنوانه (كيف تصبح إريتريًا

في عشرة أيام) ويباع بثلاثة يوروهات. يحوي الكتاب، الذي كُتِبَ بالعربية، معلومات عن إريتريا: حرب الاستقلال، تاريخ استقلالها، ألوان العلم الوطني، التركيبة القبلية، عادات كل قبيلة، جغرافية إريتريا، النشيد الوطني، لون تاكسي أسمرا، أسماء المدن الرئيسية، شكل لوحات أرقام السيارات، المطبخ الإريتري، النظام السياسي، المعارضة الإريترية...الخ. يُقَال إنَّ الدكتور طارق، مؤلف الكتاب، قد سافر خصيصًا إلى إريتريا بصورة سرية وجمع معلومات كثيرة عن البلد، والتي يرى أَنَّها مهمة حتى أنَّه حمل معه نسخًا مِن بطاقات هوية وبطاقات تموين، وتحدث مع الأهالي دون أنْ يُثِيرَ الشكوك حول مهمته السرية. اُضطّر للسفر وجمع المعلومات مِن داخل البلد نفسها لأنه لا تتوفر معلومات عنه على شبكة الإنترنت. ما فائدة هذا الكتاب؟ سترى يا سيدي أنَّه عظيم الفائدة عندما تعلم أنَّ بعض السودانيين بالأخص أصحاب البشرة خفيفة السواد يتقدمون بطلبات لجوئهم بوصفهم إريتريين. لماذا يفعلون ذلك؟ لسببين فقط، الأول أنَّ طلبات لجوء الإريتريين تُقْبَل بسهولة نظرًا للاعتراف الدولي بقسوة النظام الإريتري مع شعبه، وثانيًا يمنع قانون اللجوء الشخص الذي يحصل على الحماية الدولية مِن العودة إلى بلده الأصلي باعتبار أنَّ هذه العودة تشكل خطرًا عليه، ويسمح له بالسفر لأي بلد آخر، لذا يستفيد السوداني الذي تقدم بهوية إريترية بأنَّه يُمْنَع مِن السفر لإريتريا لكنه يستطيع العودة للسودان في أي وقت دون عقبات، أترى كم هم ماكرون؟!! في الكتاب فصل كامل مُصَاغ في شكل أسئلة يُتوقع أنْ يطرحها عليك ضابط المكتب الفرنسي لحماية اللاجئين وعديمي الجنسية وإجاباتها النموذجية! وبذا يتمكن

طالب اللجوء السوداني المتنكر في هوية إريترية مِن الإجابة، عند إجرائه مقابلة اللجوء، عن الأسئلة المتعلقة بإريتريا بيسر كبير بفضل كتاب "كيف تصبح إريتريًا في عشرة أيام"!

عندما تصل إلى الساحة المثلثة التي يشكلها التقاء شارع باجول مع شارع فيليب دو جيرارد، والتي يطل عليها مِن الناحية الشمالية مطعم سوداني، ومِن الناحية الجنوبية محل صرافة ويسترن يونيون؛ سترى مجموعة مِن اللاجئين يتوسطهم شابٌ طويلُ القامةِ، شعره مجدول ومُسْدَل، يرتدي ملابس أنيقة، يضع سلسلة عريضة في يده اليسرى ويمسك بسيجارة مُشْعَلة، إِنَّه عكاشة لَبَشْ. إِنَّه شخصية مركزية في هذا المكان رغم أنَّ الجميع يحاول أنْ يُظْهِرَ أَلَّا علاقة خاصة تربطه به. إِنَّه شخصية منحرفة، وقد كنتُ شاهدًا على بداية انحرافه. كنتُ يومها أقوم بالترجمة في واحد مِن مراكز إيواء اللاجئين بمحافظة كْرِيتيه جنوب باريس لجلسة إرشادية تقدمها عاملات صِحيَّات لبعض المقيمين بالمركز عن الأمراض المنقولة جنسياً: طرق انتقالها، وسبل الوقاية منها. أثناء انهماكي في الترجمة دخلتْ مرشدة اجتماعية للقاعة وهي في قمة الغضب، استأذنتْ المتحدثة واستأذنتني أنَّها تريدني في أمر مستعجل، خرجتُ مِن القاعة وتبعتها. ودخلتُ معها مكتبها فوجدتُ عكاشة لَبَش واقفًا وعلى عينيه لَمْعَة غريبة. شرحتْ لي المرشدة الذي حدث: يأتي عكاشة إلى مكتبها، يقف أمامها ثم يبدأ في تحريك شفتيه بصورة غريبة، ثم يمسك بعضوه التناسلي ويقول لها:

- سكس!!

تجيبه وهي مندهشة:

- عفواً؟!!

يكرر الكلمة ويُعَزِزُّها بحركة مِن يده عابرة لكل اللغات، يفهمها كل مَنْ يرى بعينين. فهمتْ ما الذي يريد أنْ يقوله. تطلب مني أنْ أقول له بأنَّها لا تقبل التحرش بها فهي ليست عاهرة، وأنَّ عليه أنْ يعلم أنَّ القانون الفرنسي صارم جدًا في هذا الأمر. يرد عكاشة لبش قائلاً:

- هي مَنْ أوحت لي بذلك، فهي تبتسم لي وتلاطفني!

عندما ترجمتُ لها ما قاله، نهضتْ غاضبةً، وقالتْ:

- ابتسامتي ولطفي يمثلان جزءًا مِن واجبي الوظيفي وأوجِّهُهما للجميع. ستطرد اليوم مِن السكن وإذا رفضتَ الخروج سأشكوك للعدالة بتهمة التحرش!

أفهمْتُ عكاشة أنَّ عليه الخروج بأسرع وقت، لأن قضية التحرش ستقوده إلى جحيم لن يطيقه. في اللحظة ذاتها نادته مساعدة اجتماعية مِن أصول عربية تدور شكوك حول تورطها في الاستغلال الجنسي للاجئين، تحدثتْ معه قليلًا وأخذتْ رقم تلفونه وذهبتْ. اتضح لي فيما بعد أنها جَنَّدتْهُ في شبكة دعارة منظمة تستهدف اللاجئين؛ فقد ظهر عكاشة لَبَش بعد فترة قصيرة في منطقة لاشابيل بمظهر مختلف، وبدتْ عليه آثار نعمة، وبدأ في اصطياد شباب اللاجئين لتقديمهم لنساء فرنسيات متقدمات في السن ووحيدات، أو لفرنسيين مِن المثليين الجنسيين مقابل أجر معلوم!

في طرف الميدان سترى فتاة فرنسية سمراء تقف أمام الصندوق الخلفي لعربتها الحديثة مِن ماركة داستر، تضع أمامها مناضد طويلة قابلة للطي، تضع على إحداها حافظات للشاي وللقهوة المعدة على الطريقة السودانية، وفي طاولة أخرى صحن كبير ملئ بالزلابية الحارة المعدة أيضًا على الطريقة السودانية، وقربه أطباق بلاستيكية صغيرة. وترى مجموعة مِن اللاجئين السودانيين وأصدقائهم مِن الأحباش والإرتريين يَتَحَلَّقُون حول طاولاتها وهم يحتسون القهوة والشاي بحنين ومجانًا. لكن لا أحد يتحدث معها فهي ترفض الحديث ولا تتبادله مع أي منهم، تضع على فمها ابتسامة هادئة، وإذا ابتدرتَ معها الحديث سترد عليك بهدوء:

- تفضل خذ قهوة أو شاياً!

ولن تضيف شيئًا آخر. عندما تفرغ حافظات الشاي والقهوة تطوي مناضدها وتضعها في صندوق العربة الخلفي وتأخذ أغراضها وتمضي لتأتي في صباح اليوم التالي في الوقت ذاته، يحدث في بعض الأوقات أنْ تتغيَّب ليومين أو ثلاثة لكنها تأتي. هناك مَنْ يقول إِنَّها ورثتْ أموالًا كثيرةً مِن زوجها المتوفى، ويقول البعض إِنَّها أتتْ لاجئة مثلها مثل غيرها، لكنها بضربة حظ عجيبة فازتْ بتذكرة يانصيب قيمتها مليون يورو استثمرتها في شراء شقق في منطقة نوازي لوقراند شرق باريس، وأصبح يأتيها ريـع شهري كبير مِن إيجار هذه الشقق.

أمَّا الشخص النحيل الذي يجلس على المقعد الخشبي طرف الميدان ناحية محل الصرافة مرتديًا نظارة طبية وينهمك

في تقليب أوراق كثيرة عل حِجْرِهِ فهو الدكتور طارق. إنَّه أول شخص تعرفتُ عليه عند قدومي لهذه البلاد، فقد كان وقتها طالبًا في سنته النهائية في كلية الألسن، وكنتُ أنا في سنتي الأولى. رافقتُه لبعض الوقت ثم ذهبتْ بنا دروب الحياة في اتجاهات مختلفة. استمر في دراسته إلى أنْ سَجَّل للدكتوراه في اللغويات العامة، وكان مشروع بحثه طموحًا وعابرًا للتخصصات، وكان هذا النوع مِن البحوث جديدًا وقتها، الفرضية التي شيَّد عليها مشروع بحثه هي أنَّ السياسات اللغوية في السودان كانت السبب في الحروب الأهلية المشتعلة فيه منذ الاستقلال، وأنَّه لو قامتِ النخبُ السياسية في السودان بصياغة سياسة لغوية رشيدة تحترم اللغات المحلية، وتتيح لها التعبير عن نفسها، ولو أنَّ التعليم الأساسي في كل أنحاء السودان تَمَّ باللغات المحلية مثل النوبية في الشمال أو لغة الدينكا والنوير والشلك في الجنوب أو لغة البجا في الشرق، بالإضافة للغة العربية، التي ستصبح لاحقًا في المراحل التالية لغة التعليم الوحيدة؛ لتجنب السودان كل هذه الحروب، وكل هذا الغبن الذي يقعده. لكنه فقد الرغبة في إكمال تلك الأطروحة لأسباب غامضة وظهر في هذا المكان مع أول موجات المهاجرين السودانيين التي تحل بفرنسا. وبما أنَّه يجيد اللغة الفرنسية إجادة تامة يتحول إلى كاتب يحرر لطالبي اللجوء القصص التي يختلقونها لتبرير طلبهم للحماية، ومع مرور الوقت أصبح خبيرًا في هذا المجال، يكتب قصصًا من تأليفه جيدة السبك ويبيعها للراغبين، ويحرر خطابات الاستئناف لقرارات المكتب الفرنسي لحماية اللاجئين وعديمي الجنسية، أو قرارات المحكمة الوطنية لحق اللجوء لأولئك الذين ترفض

طلبات لجوئهم. كما يعمل أيضًا سمسار إقامات على الأراضي الفرنسية، وهي الإقامة التي يتخلص منها الشخص (الحَفَّار) عندما ينال حماية من أكثر مِن شخصية مِن الشخصيات التي تقدم بها طالبًا اللجوء. أمَّا الشخص الذي يخرج مِن المبنى المقابل، والذي يحمل مظلة مطر يستخدمها كعصاة يتوكأ عليها عند صفاء الطقس، فهو مسيو نيكولا دو جاردان مالك العقار والذي سيقول لدكتور طارق:

- أنت تزعجني وتزعج سكان العقار بجلوسك المستمر هنا.

لينهض الدكتور طارق واقفًا، يُعَدّل مِن نظارته المُقَعْرَة ويجيب بصوت عالٍ:

- أنا على بعد أكثر مِن ثلاثة أمتار مِن مدخل المبنى، وهي المسافة القانونية التي لا يمثل جلوسي عندها انتهاكًا لخصوصية عقارك مسيو نيكولا.

يتقدّم مسيو نيكولا خطوات ثم يلتفت ليواصل حديثه:

- أنت تمارس نشاطًا غير مشروع، أنت تساعد المهربين في تنظيم أسفارهم إلى بريطانيا سرًا، سأبلغ عنك الشرطة. لماذا لا تعودون مِن حيث أتيتم، أنتم تكتمون أنفاسنا.

يصيح فيه دكتور طارق:

- لن نغادر هذه البلاد، الأرض جميعها للإنسان وهو حر في أنْ يختار مكان إقامته. اسمح لي أنْ أقول لك إنَّ حديثك فيه

عنصرية، لذا سأبلغ عنك لدى (أس أو أس راسيزم) ...!!

لكنها معركة يومية ومكررة بينهما، أصبحتْ مثل الواجب اليومي الذي يجب عليهما أداؤه قبل أنْ ينصرف كل منها إلى أعماله!

تنتشر المطاعم السودانية في شارعي باجول وفيليب دو جيرارد، ربما يبلغ عددها خمسة أو ستة، تُقدّم وجبات سودانية تقليدية. لكن هذه المطاعم لا تطبّق معايير معقولة للجودة؛ لذا أرى أنَّه مِن غير اللائق أنْ يأكل فيها شخص متحضر ومتمدن. هل تصدق أنَّ الوجبات تُقَدّم لتؤكل مِن غير شوك وسكاكين وملاعق، عليك أنْ تستخدم يديك العاريتين، كما أن المطعم لا يُقَدِّم لك منديل طاولة، إذا نسيتَ أنْ تحمل معك منديلًا عليك أنْ تستخدم حافة يدك لتنظيف فمك أثناء الأكل، هل تصدق أنَّ سلوكًا مثل هذا يمارس في القرن الواحد والعشرين!! رغم كل هذا البؤس، كانت آن صوفي تحب القدوم لهذه المطاعم والأكل فيها، تقول إنَّه أمر طريف ومختلف وربما سينقرض قريبًا، لذا تريد أنْ تجربه لمرات عديدة.

كانت آن ـ صوفي تصاب بردة حضارية عندما تأتي في بعض الأحايين للأكل في هذه المطاعم السودانية، فتراها تأكل مِن الصحن ذاته مع مجموعة مِن اللاجئين، تستخدم يديها وتفعل مثلهم إذ تمص أصابعها أثناء الأكل وتدخلها مرة أخرى في الصحن المشترك، وتَمَطّق لسانها بصوت عالٍ مثلهم، وتحشر مثلهم ملعقتها في وعاء الحساء المشترك، وتتجشأ عند نهاية الوجبة، إنَّه سلوك مقزز، ولا أفهم إلى الآن كيف يمكنها فعل ذلك!!

بعد الحديث الذي دار بيننا في ذاك اليوم بدأتْ علاقتنا في التوطد، وعززت روحها المهزارة وانفتاحها المذهل من تآلفنا على نحو كبير، كانتْ الورود تنمو بيننا وسط ذهولي التام، وتمتلئ سمائي بالأقمار، وتتساقط النجوم المزهرة على قلبي. عندما انتهى الشتاء كُنَّا قد أصبحنا أصدقاء جدًا، ونمضي ببطء نحو حياتنا المشتركة. كنتُ أحسها حذرة في بعض الأحيان، بينما أتمهل أنا خوفًا مِن جمالها الطاغي، كنتُ أساءل نفسي: هل سأطيق هذا السحر؟ منذ قدومي لهذا البلاد منذ سنوات بعيدة كنتُ أتَجَنَّبُ بحذر كبير، ما استطعتُ الفتيات الجميلات، أدرك ألَّا طاقة لدي لحمل ثقلهن اللذيذ!

كنتُ ألتقي آن ـ صوفي عند جسر (بون دْلِينا) في الدائرة السابعة مِن باريس القديمة. نجلس وأرجلنا ممدة نحو مياه نهر السين المضطربة بسبب مرور كثير مِن المراكب الكبيرة التي تحمل السياح مِن كل بلد. ترتدي قميصًا قطنيًا ناصع البياض أكمامه قصيرة وفتحة عنقه كبيرة حتى أنَّها بالكاد تغطي نهر نهديها، كما ترتدي بنطلون مِن الخيط حنطي اللون وصندلاً مِن الجلد، وتضع نظارة شمسية تغطي نصف وجهها. نجلس ملتصقين وننظر في ذات اتجاه المراكب التي تمر تحت الكوبري، يُلَوِّح لنا السياح مِن على ظهرها بمرح. قالت لي ذات مرة:

- حدّثني عن بلدك، أو بالأحرى عن حياتك في بلدك!

قلت لها وأنا أدْلك لها في يدها:

- لا شيء يستحق الذكر. لقد بدأتْ حياتي حقيقة هنا في باريس.

بالطبع أنت تجلسين الآن هنا وكل ما في الأنحاء يحدثني عنك. عن يميننا برج إيفل الذي تخيله وسهر عليه جدك غوستاف إيفل. ونجلس معًا الآن على كوبري (بون دْلِينا) الذي بناه قائدك المبجل نابليون بونابرت في بداية القرن التاسع عشر، ولا يزال جديدًا وشامخًا ويحمل على ظهره آلاف المشاة كل يوم. وعن يسارنا قصر التروكاديرو بحدائقه المهيبة، كل ما حوالينا يحدثني عنك بفصاحة. عن نبل أصلك وعراقة تاريخك. كل هؤلاء العِظَام أنتِ تحملين قطرات مِن دمائهم في شرايينك. لن أستطيع أنْ أُحَدّثكِ عن ماضيّ في تلك البلاد البعيدة ما وراء البحر الكبير، أنا أجهد مع السنين لأمحو كل ما يمكن أنْ يقفز منها، مِن سحيق ذاكرتي؛ ليضجر حاضري. لا رغبة لي البتة في أنْ أذكر أمي أو حتى أبي الذي ربما لم يتعرّف عليَّ في يوم ما. إنَّه غير مُشَرِّفٍ الحديث عن أبٍ يراك طوال اليوم لكنه لا يعلم إنْ كنت ابنه أم جاسوسًا تتبع أعداءه المتوهَمين!!

الفصل السابع

ربيـع وشتـاء

أصبحنا نتسكع سويًا في أمسيات باريس الربيعية، لم أَعُدْ أهتمُّ كثيرًا بالذهاب لمقر المنظمة. عند خروجي مِن العمل أجدُ آن ـ صوفي في انتظاري، نذهبَ للتسكع في الأنحاء. لم نصرح بالحب لكنه كان أوضح مِن أنْ يُصَرَّح به. تنظرني بلهفة تبدو في عينيها عندما أقابلها، وأنا ضبطتُ مواقيتَ الكون العظيمة على مواعيد لقائها. كنتُ أُعيد في اكتشاف نفسي حتى بدوتُ شخصًا آخر جديرًا بالحياة بحق. فكرَّتْ أَنَّنِي كنتُ أعيشُ بؤسًا رهيبًا، لم أكن مؤهلًا لإدراكه، لكن الحب الذي يغمرني الآن جعلني أُعيد التفكير في تاريخي البغيض! نذهب ناحية نهر السين، نجلسُ على المقاعد الخشبية المقابلة للنهر، نتأملُ العابرين والمراكب والسماء الربيعية الصافية في كثيرٍ مِن الأوقات. تلتصق بي آن ـ صوفي بصورة حميمية، لا تطيق ابتعادًا عن جسمي، في البدء يُرْبِكُني التصاقها هذا فيبلل العرق جسمي لكني مع الوقت أصبحتُ أتطلع في كل وقت لالتصاقها الحميم، بل يمكن أنْ أقولَ إنَّ هذا الالتصاق يمثل الصورة المادية التي تبقى في ذهني مِن لقائي بها عندما نفترق! بدأتْ تسكنني الرغبة في أنْ أمضي بها لسريري. أعرف أنَّها مسألة تستغرق وقتًا ثقيلًا في هذه البلاد، أعرف أنَّها تحتاج أنْ تعرفني أكثر، أنْ تطمئنَّ أكثر، لكن كيف أُهَدّئ أجهزتي العصبية التي كاد أنْ يفتكَ بها لظى الشهوة!

لكن في ذاك المساء مضتِ الأمورُ بصورة جيدة، كنَّا نجلس قُبَالة نهر السين في الدائرة التاسعة عشرة مِن باريس، الوقت مساء ربيعي، تتقافز أَسماكٌ بيضاء على صفحة النهر، والسماء معربدة بالغيوم الكاذبة، وهواءٌ منعش يتحرك على امتداد الرصيف، في

بعض اللحظات يصير بارداً؛ فيلسع الأجساد بصورة مخاتلة كأنَّه يذكرها بقسوة الشتاء الذي مضى. تمضي أمامنا بانوراما مِن الأشخاص الباريسيين، منهم مَنْ يُمَارِس رياضة العدو، ومِنهم مَنْ يدفع طفلَه أمامه على عربة، ومنهم مَنْ يمسك بكتف حبيبته، ويتمهل في السير. كنتُ أجلس بينما تتمدد آن ـ صوفي على المقعد الخشبي وتضع رأسها على حِجْرِي وتتأملني بعينين فتَّاكتين، تتنفس ببطء وبإيقاعٍ رتيب، كأنَّها تؤدي تمارين لليوجا، عيناها تقولان الكثير، أُمَسّد شعرها بحب ورغبة عارمة، قد بلغ توتري ذُرَى شاهقة، وهي تتأملُ الشبقَ الذي تدفقه عيناي، هي تدركه وتفهمه وترغبه، أصبحتُ على يقين مِن ذلك، كنتُ أفكر أنْ أخطو الخطوة الأخيرة. لكن عندما رفعتُ رأسي لأخلصَ عينيّ قليلًا مِن عربدة الرغبة، رأيتُ لاجئًا سودانيًا رَثَّ الملابس يقف أمامنا تمامًا، ينظرنا برعونةٍ، ينظر مباشرة إلى صدر آن ـ صوفي الذي تنحسر عنه بلوزتها واسعة العنق. يدخل يديه في جيوب بنطاله ولا يتزحزح. أربكني وأصابني بالضجر، مِن أين هبط لي هذا الوغد؟!! أتوقع أنْ يقوم بكُلّ شيء يفسد به أمسيتنا تمامًا. نهضتُ وقلتُ لآن ـ صوفي:

- فلنذهب مِن هنا!

نهضتْ مرتبكةً؛ فهي لم ترَ الشاب السوداني، أو لم توليه اهتمامًا، قالتْ مستفسرة:

- سنذهب إلى بيتك؟!

- نعم!!

هي إذن تلبي ندائي باختيارها. وذهبنا إلى شقتي بالقرب مِن محطة قطارات روزا باركس، والتي لا تبعد كثيرًا عن المكان، لكنها بدتْ لي كأنَّها في الطرف الآخر مِن الكرة الأرضية. وصلنا الشقة ورمينا بأغراضنا. دخلتْ هي الحمام ثم خرجتْ سريعًا. جلسنا على الكنبة، استلقتْ نصف راقدة تتأمل وجهي. أخذتْ يداي في الارتجاف، قلبي ينبض بجنون كاسح، أزدرد ريقي فلا أجد لعابًا ليبلل حلقي الجاف. ارتميتُ عليها بلطف ومسكتُ بشفاهها الراجفة، أي جنون هذا...! سكنتْ جسدي نشوةٌ غير مسبوقة، أحسستُ كأنَّني مُمَدٌّ على غيمة! هنيهة ثم أزاحتني عنها، ونهضتْ لترمي بجميع ملابسها وتقف عارية تماماً!! فأرتبكُ أنا بجنون، وترتبك كل الوظائف العصبية لجسدي حتى أنَّه عندما أرغبُ في أنْ أبلعَ ريقي ترّفُ عيني!! استلقتْ على الكنبة، يتجاوز جمال جسدها حدود خيالي، لم أكن أظن أنَّ هناك جسدًا بشريًّا بهذا الجلال ...! لن أستطيعَ أنْ أحيطَ به. نزعتُ ملابسي وارتميتُ قربها، لكني بدلًا مِن أَنْ أعتليها بكيتُ...! إنَّه أكثر مما تمنيّتُ، أكثر مني...!

بعدها جعلتني أَدْمِنُ جسدَها، ثم رمتْني في وحدةٍ قاتلة ومضتْ. أُفَكّر فيها كثيرًا، أحلم بها ليل نهار، تضغط على ذاكرتي لحد أني أوقن في بعض اللحظات بأنَّها لم تك حقيقة، أنشأتُها أنا مِن تَوَهُّماتي خلال وحدتي القاسية الطويلة. كثيرًا ما يختلط عليَّ الأمر: هل كانتْ بالفعل جسدًا متحققًا، ويشغل جزءًا مِن هذا الفراغ الكونيّ، أم هي محض خيالات ملأتُ بها فراغ وحدتي الكبير؟

مشنوقٌ في وحدتي، لا أحد يأبه لعزلتي ولأوجاعي، أفرش أخر الليل بؤسي وأنام عليه، أحسُّ حاجةً ملحة لأنْ أفعل شيئًا

كي أخفف الثقل الذي يجثمُ على قلبي، فكنتُ أكتب وعندما أحسُّ أنَّ الكلمات يضيق ماعونها عن حمل الطاقة الشعورية التي تتلبسني غالبًا ما ألجأُ للشخبطة بالقلم الرصاص على ورقة بيضاء، أنجز رسومات أحسُّها تفرغ هذه الطاقة. ما أنجزه مِن لوحات قد يكون بلا قيمة فنية كبيرة، أو حتى بلا دلالات واضحة، لكنه يريحني بصورة ما. عندما أنهي اللوحة أكافئُ نفسي بكأسين مِن الفودكا وأنام بعمق. وسيلة التعبير الأولى عندي هي القلم وليس اللسان، فاللسان مُهرطِق، وكثيرًا ما يغوى ولا يمكن ضبطه. أَستخدمُ القلم للكتابة في معظم الأوقات وللرسم في بعضها. هل تريد أنْ ترى لوحاتي؟ حسنًا لا تتوقع شيئًا عظيمًا، لدي رسمتان في حاملة أوراقي، انتظر حتى أعثر عليهما في كومة هذا الهراء و... نعم ها هي اللوحة الأولى، انظر لها..

كم هو سخيف أنْ يُعَرِّي الإنسان نفسه بهذه الصورة المفضوحة، أعرف أنَّك تستطيع قراءتها باعتبارك معالجًا نفسيًّا،

وليس بوصفك متذوقًا للفنون الجميلة، سترى فيها هواجسي ورغباتي الدفينة، لكنها بِكُل تأكيد هواجس شخص طبيعي، ورغبات يمتلكها جميع الناس، ويُعَبِّرون عنها بطرق مختلفة... ها هي اللوحة الثانية، اِلقِ عليها نظرة..

رسمتُها في ظروف مغايرة؛ لذا تختلف خطوطها عن الأولى. لك مطلق الحرية في أنْ تُسْقِطَ عليهما ما تشاء مِنْ تَمَثُّلاتِك عنيّ وأحكامك، لكن أؤكد لك أنني في كامل لياقتي النفسية، وأَنَّ سوء فهم بسيط وقع بيني وبين رب العمل حملني على مراجعة عيادتك، كان لا بد أنْ آتي؛ وإلا فقدتُ وظيفتي، فقد هددني بإنهاء عقدي، وبدفع مستحقات نهاية خدمتي إنْ لم أتعهد بمراجعتك بصورة دورية. يقول: إِنَّ اضطرابًا نفسياً أَلَمَّ بي، هو يبالغ كثيرًا. كيف لخلافات عادية مع بعض العملاء تحدث كل يوم في كُلّ شركة، في كُلّ مكان أنْ يستنتج منها أنَّ بي خللًا نفسيًّا. أظنّ هو مَنْ يحتاج لعلاج نفسي. أنا أستجيبُ له لأَنّي أحب مهنتي، أحب هذه المهنة كثيرًا. أنا أُساعد بلدي فرنسا في التعامل مع كارثة الهجرة واللجوء، التي تضربها مِن حيثُ لا تحتسب. كيف لهذا المعتوه أنْ يطلبَ مِني أنْ أكون محايدًا عندما أقوم بالترجمة؟!

استدعاني في ذاك اليوم إلى مكتبه قرب نهاية يوم عمل عادي، دخلتُ عليه، كان يجلس على كراسي الضيوف وليس خلف مكتبه الكبير، لم يقم لاستقبالي كما تقتضي أصول اللياقة، بل أشار لي فقط أنْ أجلس على كرسي مواجه له، وضع نظارته على الطاولة التي تفصل بيننا ثم قال لي:

- هناك شكاوى ضدك مِن بعض العملاء، ومِن قسم المتابعة في الشركة.

قلتُ له وأنا أنظر في عينيه، محاولًا أنْ أتجاوز اللهجة المسيطرة والمنذرة التي يخاطبني بها:

- ما مصدر الشكوى؟

- إِنَّك لم تعد تتصرف بوصفك مترجمًا محترفًا!

- ربما لأنَّ مَنْ أبلغك بالشكوى لديه تعريف مختلف للمترجم المحترف!

صمتَ لبرهة ثم قال، وهو يرفع ورقة مِن الطاولة التي أمامه:

- عندما تمَّ توظيفك معنا في هذه الشركة قمتَ بتوقيع عقد قَبِلتَ فيه بالعمل وفقًا لميثاق جَوْدَة الترجمة المهنية الخاص بالشركة، والذي يتضمن بكل وضوح (ثم يقرأ مِن الورقة):

"يعمل المترجم في المرافق العامة وفقًا للقواعد المنظمة لمهنته، فالمطلوب مِنه بصورة رئيسية أنْ يقومَ بنقل الرسالة موضوع الترجمة بين المتحدثين بكامل معناها، وبطريقة محددة، وبصدق وبإخلاص، دون حذف أو إضافة أو تحريف أو تزويق للمعنى. يمكن للمترجم أنْ يطلب مزيدًا مِن الإيضاحات مِن طرفي المحادثة عندما يقتضي السياق ذلك. على المترجم أنْ يتأكد مِن فهم الطرفين للرسائل المتبادلة بينهما عن طريقه فهمًا لا لَبْس فيه، كما يمكنُ للمترجم أنْ يشرحَ أي عنصر ثقافي (عادات وتقاليد ومعتقدات) يرد أثناء المحادثة، ويتمُّ ذلك فقط عندما يحسّ أنَّ هذا العنصر يمكن أنْ يعيق فهم الرسالة المنقولة، أو أنَّ شرحه وتوضيحه يمكن أنْ يُعَزِّزَ الفهم. كما يؤدي المترجم عمله بحياد تام ونزاهة وموضوعية، ويعني ذلك أنه يجب عليه أنْ يحتفظ بالمسافة ذاتها بينه وبين طرفي المحادثة، بمعنى ألا

ينحاز لطرف على حساب الطرف الآخر. يجب أنْ تكون الترجمة أمينة. وعلى المترجم أنْ يبقى، تحت كل الظروف، محايدًا، وعليه ألا يعرِض رأيه الشخصي أثناء المحادثة موضوع الترجمة، أو أنْ يُظْهِر وجهة نظره أو معتقداته الشخصية أثناء عملية الترجمة!".

يضع الورقة على الطاولة ثم يصيح بي:

- لكن أنتَ أصبحتَ غير نزيه في الترجمة، وغير محايد، تتدخل بإعطاء شروح وتفسيرات على الترجمة أنتَ غير مطالبٍ بها!!

أجبته بيقين:

- إنَّ الإطار الذي نعمل في سياقه يحتم علينا أنْ نُعيدَ تعريفَ هذه المفاهيم، مفاهيم الحياد والنزاهة والصدق في الترجمة.

- ماذا تقصد؟

- أقصدُ أَنَّني لن أكونَ محايدًا مع طالب لجوء أعلم تمام العلم أنَّ المعلومات التي يقدمها لموظف الهجرة في لحظة الترجمة هي معلومات مضللة وغير صحيحة على الإطلاق.

- لكن هذا ليس واجبك. واجبك فقط أنْ تنقل بكل أمانة حديث كل واحد منهما للآخر. لستَ مطالبًا بإصدار أحكام أو تعليقات على حديث أحدهما، أكرر: عليك أنْ تبقى محايداً!!

- هل يمكن لجندي أنْ يكون محايدًا في يوم المعركة؟!

صاح فيَّ بضيق:

- ما علاقة ما نقوم به بالمعارك؟

- هناك معركة في فرنسا ضد هؤلاء اللاجئين. لو اتخذتَ الحياد كما تطلب مني يعني هذا أنَّنِي أخون بلدي فرنسا. هذا بالضبط ما أحسُّه أنا عندما أقوم بالترجمة بين اللاجئين ومكاتب الهجرة، إنهم يكذبون ويضللون الإدارة الفرنسية بمعلومات غير صحيحة، أنا أعرف أَنَّها غير صحيحة، لأَنّي عشتُ في بلدهم لسنوات، أنا كنتُ منهم يا سيدي، إذا تغاضيتُ عنها يعني ذلك أنَّنِي أُمَهِّد لشخص كاذب ومنافق أنْ يحصل على شيء لا يستحقه، وأسمح له بذلك أنْ يعيش على هذه الأرض ويدمرها بسوء سلوكه!

وتجادلنا لساعات. أنا أثق فيمَا أقوم به وأؤمن بوجهة نظري، لكنه يستمسك بنظريات مدرسية لم تعد صالحة، فالظروف تتغير والمعطيات تتجدد، يمكننا الآن أنْ نضيفَ، في سياق هذه الهجرة البربرية: إنَّ المترجم في دوائر الهجرة يجب أنْ يكون وطنيًا، ويدافع عن وطنه بالتنبيه عن أي معلومات مغلوطة يُدْلِي بها طالب اللجوء في لحظة الترجمة، إِنَّها مسألة أولويات، قل لي بربك ما الأَوْلَى: وطني أم حيادي ونزاهتي في الترجمة التي تُقْرَأ في هذه الحالة بوصفها خيانة فظَّة؟! لكنه بدلًا مِن أنْ يحاورني حتى النهاية، يقوم بمنحي إجازة سنوية لم أُطَالِب بها، ثم يلزمني أنْ أتردَّدَ على عيادتك وإلا سيطردني، يالسخافة!!

الفصل الثامن

غـرفـة 13

الوقت أول الليل، يرمي القطار بعاصف عند المحطة، ثم ينطلق مغادرًا بسرعة كأنَّه يفر مِن وحشة المنظر وكآبة المباني العتيقة. يرمي بحقيبته على كتفه، ثم يتلفت باحثًا عن الموظف الذي ينبغي أن يكون في استقباله. محطَّة القطار خالية مِن البشر، وحده مَنْ ترجَّل مِن القطار، المباني عتيقة تفوح منها رائحة الرطوبة والفطريات، لا يُسْمَعُ في فناء صالة الاستقبال إلا أزيز ماكينة لتوزيع المشروبات والشكولاتة آليًا، صَدِئَة الأطراف, الصالة فضاء كبير بلا مقاعد تقريبًا، وبعض نوافذها الباهتة الألوان محطَّمة، ويغطيها براز طيور الخريف، يحسُّ بالانقباض قليلًا عندما يتطلع مِن نافذة الصالة ليرى منازل القرية التي تبرز تحت ضوء القمر المنير مِن بين الأشجار مثل أشباح ضخمة لمقاتلين مِن القرون الوسطى، بعضها مُضَاء وبعضها يغرق في العتمة، يحسُّ بالانقباض. يرى أنَّ الشوارع خالية إلا مِن قطط ضالة تسير بكآبة وضجر، يطاردها نُبَاح كلاب غير ملحاح. كُلُّ المحطات التي ارتادها ليلًا في رحلة تسلله مِن إيطاليا إلى فرنسا كانت تعمر بالمشردين ترافقهم كلابهم الضخمة وعلب الجعة الخضراء والرمادية ونظراتهم المُفْرَغَة مِن كُلّ معنى والمحايدة ببرودٍ مُمِضٍ، لكنه الآن هنا في هذا المكان المنسي مِن جغرافية فرنسا لا يرى مشرَّدًا في المحطة، إنَّه أمر غير مُبَشِّر. يختار مقعدًا متهالكًا في ركن مِن الصالة ويجلس عليه، يرى بالقربِ منه بيانو عتيقًا منصوبًا على علوٍ طفيف، مكتوب على لوح غطائه عبارة تدعو المسافرين للعب عليه بحرية، لكن خيوطًا مِن نسيج العنكبوت تتمدد بين مفاتيحه، وغبارًا ناعمًا يرقد بهدوء على أسطحه. متى سيأتي موظف مركز إيواء اللاجئين ليخرجه مِن هذا المكان الموحش؟! كم مِن الوقت سيُمضي في هذه القرية،

يسائل نفسه! إنَّه ماراثون مِن الإجراءات الإدارية المملة كما قيل له، لكنه بلا خيار عليه الانتظار فقط. يرى أنوار عربة قادمة تقف أمام مدخل الصالة، يرى سائقها ينزل، يقف أمام الصالة؛ ليصيح بإنجليزية تخالطها لكنة فرنسية طاغية:

- مستر عاصف أليس كذلك؟

ينهض عاصف متخلصًا مِن ضجر الانتظار، يجيبه بالفرنسية:

- نعم سيدي.

- لا بد أنْ تكون أنتَ، ومَنْ يأتي لهذه القرية اللعينة في هذا الوقت غير مضطرٍ بشدة!!

يصمتَ لبرهة، ثم صاح كأنَّه استدرك شيئاً:

- أجبتني بالفرنسية؟

- نعم.

- حسنًا، سيساعدك هذا كثيرًا في أنْ تَكُون مستقلًا. نادني باتريس، أنا الحارس الليلي للمركز.

يصعدان العربة قديمة الطراز ويتجهان نحو القرية، يعبران الشوارع الخالية إلا مِن السآمة والضجر، كانتْ المتاجر القليلة التي تتوزع على طرفي الشارع الذي يشقُّ القرية مِن منتصفها مغلقة كُلّها. تعبر العربة القرية كُلّها لتتجه نحو طرفها الجنوبي، يرى أنَّ هناك مبنى مِن طابقين لكنه يمتد على مسافةٍ طويلة نسبيًا، ولا يشبه بيوت القرية الصغيرة والمكونة كُلّها تقريبًا مِن طابقٍ واحد، مُلْحَق به حديقة تصغر أو تكبر. بدا له المبنى غريبًا لا يحيل إلى شيء محدد يعرفه، يصيح باتريس:

- كان المبنى ثكنة عسكرية أنشأتْها قوات التحالف في الحرب العالمية الثانية، أقام بها جنود مِن بلدان مختلفة. عندما تمَّ الانتهاء مِن بنائها كانتْ الحرب قد أوشكتْ على نهاياتها، ولم يسكن فيها أحد تقريبًا بعد نهاية الحرب، تأتي بعض الأحيان فِرَقٌ مِن الجيش الفرنسي لإجراء تدريبات أو تمارين، ثم سريعًا ما تغادر. إنَّه مكانٌ موحشٌ، آسف أنْ أقول ذلك وأنتَ تمضي ساعتك الأولى في المكان.

- لا عليك. أستطيع أنْ أتكيَّف. أو بالأحرى يجب أنْ أ تكيَّف !

يدخلان المبنى، ثم يعبر به الهول الكبير، يستدير يمينًا، ثم بعد خطوات قليلة يسارًا. يقف به أمام غرفة في الطابق الأرضي، يقول له:

- غرفتك رقمها (13) يشاركك فيها السكن شاب غريب الأطوار، لكنه غير مزعج ومسالم.

يطرق الباب؛ فيفتح الباب مواربةً شابٌ صغير ضئيل الجسم، أسود البشرة، ينظرهما لبرهة ثم يفتح الباب كُلّيًا. كان مرتبكًا، وتعرَّقتْ جبهته سريعًا. أشار له باتريس بما يفهم مِنه أنَّ هذا الشخص سيقيم معه في الغرفة، ثم قال لعاصف:

- إنَّه لا يتكلم أية لغة مفهومة، لم يفهم أكثر مِن خمسمائة مترجم اللغة التي يتحدثها همسًا، تبدو أنَّها لغة كوكبية مِن المريخ أو حتى مِن عطارد!!

ضربَ عاصف على كتفه وهو يضحك:

- حسنًا أنا أمزح، سأدعكما الآن، فقط تذكَّر أنْ تقابل الإدارة

في التاسعة مِن صباح الغد في الطابق الأرضي لتكملة إجراءات تسكينك. طابتْ ليلتكما.

يدخل الشاب أمام عاصف، ويزيح بعض الملابس التي كانت ملقاة على السرير الآخر. يرمي عاصف حقيبته على الأرض، ثم يرتمي على السرير، كان مرهقًا بشدة مِن أيَّام تشرده في باريس في انتظار أنْ يُرَحَّل لمركز الإيواء. رغم وحشة المكان لكنه يحس بأنَّه قد صار له بيت. صارتْ له أربعة جدران يتمتع فيها بالخصوصية، تقيه برد هذه البلاد القاهر. الغرفة ضيقة جدًا، على جانبيها سريران وطاولة، وعلى جانبي الطاولة كُرْسِيَّان، تقبع الطاولة تحت النافذة الكبيرة التي تطل على فناء يليه بعض منازل القرية المأهولة. على الحائط قُرْب المدخل ينتصب دولاب صغير يتكون مِن قسمين، ملتصق به من الجانب مشجب معاطف. يبقى في وسط الغرفة فضاء ضيق يكفي للتنقل بين أجزائها. إنَّها لا تصلح لشخصين إلا إذا كانا زوجين أو عشيقين، ربما تصبح عندها محتملة. لكن بما أنَّه ذاق الأمرَّين في شوارع لاشابيل وقرب معسكر (سنتر دو بوا) فقد بدا له المكان فردوسًا مُصَغَّرًا. يجلس الشاب مقرفصًا على طرف سريره. ينظر بارتياب نحو عاصف، يمسك برجليه ويضمهما ليضع ذقنه بين ركبتيه، في بعض الأوقات ينكمش حتى يخفي وجهه بين فخذيه، ثم يرفعه ببطء وتعلق على عينيه نظرة مستريبة. كان نحيل الجسم بشدة، حتى أنَّ عظام كتفيه تبرز مِن تحت الجلباب السوداني الذي يرتديه. بشرته شديدة السواد، ربما زاد مِن قتامتها شقاءٌ كبير عرفه الشابُ الصغير تحت شمس بلاده اللاهبة. يسأله عاصف:

- ما اسمك؟

يجيب الشاب بصوتٍ مخنوق، هامس، ومشوش:

- بُشارة.

سأله عاصف مرة أخرى:

- سوداني؟

لكنه ينكفئ على جانبه ساحباً الغطاء على جسده المنهك، ولا يجيب. يكرر عاصف السؤال لكن الشاب يتجاهله مرة أخرى. يتسرب ضوء القمر مِن بين فتحات الستارة التي تغطي النافذة، يغرق في أفكاره، يعيد السؤال على نفسه للمرة الألف: لماذا أتيتُ لهذه البلاد؟ يتذكر أنَّه فرّ هاربًا مِن بؤسه وقهره. إنَّه لم يك مُخَيرًا، إنَّها هجرة فُرِضَتْ عليه، لكن هل سيتحقق في هذا السياق الجديد؟! وهل لا يزال يفكر في صفاء وما فعله بها؟. يتخلل ضجيج أفكاره نُبَاح كلاب أشبه بعواء الذئاب، يسمع اصطكاك أسنان الشاب الصغير رغم أنَّ الغرفة دافئة تمامًا. يسمع علو وهبوط أنفاسه بشكل متسارع. ينام عاصف ثم يصحو بعد وقتٍ، ليجد بُشارة في ذات حاله، والكلاب تعوي في سجالها الأبدي مع القمر في لياليه التي يكون فيها بدرًا.

عندما يصحو صباحًا يحسُّ أنَّ الغرفة تفوح فيها رائحة البول. يرتدي ملابسه على عجل، يجلس بُشارة مقرفصًا عند طرف سريره، ملتفًا بغطائه بينما جلبابه الذي كان يرتديه الليلة الماضية مبسوطٌ على المدفأة، ينظر إلى عاصف بارتباك. ينزل عاصف سريعًا إلى الطابق الأرضي فيجده يفور باللاجئين مِن كُلّ لون وجنس، لكن الأغلبية الطاغية هم مِن السودانيين والأفغان

والسوريين. سريعًا ما يلمح مكتب الإدارة فيتجه نحوه دون أنْ ينتبه له أحد. رغم أنَّ المكانَ محتشدٌ بالبشر، لكن الصمتَ طاغٍ، والوجوم يعلو الوجوه، والكُلُّ منهمكٌ فيما يعنيه.

يجلس أمام مكتب المساعدة الاجتماعية الخمسينية، تضع أوشامًا غريبة على ساعديها، وتعلّق على جيدها سلسلة فضية تتدلى منها تميمة عاجية، رغم تقاطيعها الطفولية، يشعر أنها تعلّق على وجهها حيادًا باردًا لا يشبهها، بدت له مثل ممثلة مبتدئة مرغمة على أداء دور لا تجيده، يهمس لها:

- وصلتُ بالأمس مساءً.

تردّ دون أنْ تنظر نحوه:

- حسناً!!

تشرع في تقليب أدراج مكتبها لبعض الوقت، ثم تخرج أوراقًا وتطرحها على الطاولة، تقول له بآلية:

- ستوقع عقد استضافة بينك وبين مركز إيواء اللاجئين هذا. وهو عقد فيه حقوق وواجبات.

ثم تتحدث برتابة كأنَّها تخاطب الفراغ:

- مِن جانبنا نلتزم أنْ نعين لك، أثناء إقامتك في هذا المركز، موظفة تسمى (مُسَاعِدة اجتماعية) أو (عاملة اجتماعية) ترافقك في كُلّ الإجراءات الإدارية المتعلقة بطلب لجوئك التي تبدأ بسحبٍ لملفِ طلب اللجوء مِن المحافظة، ومِن ثَمَّ إكمال الملف بالبيانات المطلوبة وتضمينه الأسباب التي دفعتك إلى مغادرة بلدك طالبًا للحماية الدولية مِن جمهورية فرنسا، وإرسال

هذا الملف إلى المكتب الفرنسي لحماية اللاجئين وعديمي الجنسية (الأوفبرا)، وبعد ذلك تسلَّم خطاب تسجيل طلبك مِن (الأوفبرا) والذي بناءً عليه ستُصدر لك المحافظة شهادة طلب لجوء تسري لفترة تسعة أشهر قابلة للتجديد، وستكون هذه الشهادة بمثابة هويتك الشخصية، وبمثابة تصريح إقامة على الأراضي الفرنسية. كما نلتزم بتجهيزك، عندما يتمُّ استدعاؤك بواسطة (الأوفبرا)، لإجراء المقابلة مع ضابطها الذي سيناقش معك طلب لجوئك، وهي المناقشة التي يعقبها إصدار القرار سواء بالرفض أو القبول لطلبك. إذا تمَّ قبول طلبك ومُنِحْتَ الحماية الدولية ستبقى معنا هنا لمدة ستة أشهر قابلة للتمديد، تحت ظروف معينة، لستة أشهر أخرى نقوم خلالها بتجهيزك لتصبح مستقلًا، وتبدأ حياتك المهنية في فرنسا. أمَّا إذا كان ردَّ الأوفبرا على طلب لجوئك سلبيًا، فسنساعدك في استئناف قرار الأوفبرا في المحكمة الوطنية لحق اللجوء وستستمر في ضيافتنا حتى إصدار الحكم على الاستئناف، إذا رُفِضَ الاستئناف سيكون أمامك خياران: الأول أن تقدم في برنامج العودة الطوعية لبلدك الذي ينظمه ويشرف عليه المكتب الفرنسي للهجرة والاندماج (الأوفي)، الخيار الآخر أن تخلي الغرفة وتغادر في غضون شهر مِن تاريخ حكم المحكمة. ستساعدك العاملة الاجتماعية أيضاً على استكمال إجراءات التأمين الصحي لكي تحصلَ على العناية الطبية مجانًا، وستساعدك في مراجعة الرسائل البريدية التي ستصلك على صندوق بريد مركز الإيواء.

يعبث عاصف بالعصابة الحمراء، يسحبها لأعلى ثم يطلقها ليحدث اصطدامها بساعده صوتًا حادًا، تتوقف المرأة عن

الحديث وتسأله باستغراب:

- ماذا تفعل؟!

- أعبث بهذه العصابة لأتخلص من توتري!

تهمس له باستغراب:

- ليس هناك عصابة على يدك!!

تتأمله لبرهة، تمسك بعدها بعددٍ مِن الأوراق ثم تواصل حديثها:

- يجب أنْ تفهم في البدء أنَّ هذا العقد الذي ستوقعه بعد قليل هو عقد مؤقت، وليس عقد إيجار بالمعنى التقليدي، إنما يمثل عقد استضافة في مركز لإيواء طالبي اللجوء (كادا) يشرف عليه المكتب الفرنسي للهجرة والاندماج (الأوفي)، يتضمنُ هذا العقد بعض القواعد والضوابط التي يجب عليك احترامها. أولًا ستستضاف في غرفة مزدوجة، يشاركك فيها شخص آخر، ولا يحق لك أنْ تستضيف فيها شخصًا مِن جانبك حتى لو لليلةٍ واحدة، ويجب عليك أنْ تلتزمَ بالمحافظة على نظافتها ونظافة الحمامات والمطبخ المشترك، ستقوم مديرة المركز بزيارات تفتيشية مفاجئة للتأكد مِن التزامك بذلك. ثانيًا، لا يحق لك المطالبة بالتحويل إلى سكنٍ آخر، يجب عليك البقاء هنا إلى أنْ تصل بطلب لجوئك إلى أخر محطاته، وإذا خرجتَ مِن هذا السكن في أي وقتٍ مِن الأوقات لن تستطيع العودة إليه، ولن تُمْنَح سكنًا آخرَ، وسيتمُّ قطع المساعدة المالية الشهرية التي يمنحها لك (الأوفي)، يجب عليك أيضاً الاستئذان مِن الإدارة في حال رغبت في التغيب عن المركز لأكثر مِن ثلاث ليالٍ متتابعة،

وإذا لم تبلغ الإدارة سيعتبر غيابك خروجًا نهائيًّا، وسيحلُّ في مكانك شخص آخر. يجب عليك ثالثًا، الالتزام بالذهاب لكُلّ المواعيد الإدارية التي تحددها لك المرشدة الاجتماعية. وبما أنَّ المركز يستضيف لاجئين وطلاب لجوء مِن جنسيات وأديان وثقافات مختلفة، فيجب عليك احترام خصوصيات الآخرين، وعدم الخوض فيما يعتبر إهانة لشخص آخر. أخيرًا، ينتج عن استخدام العنف اللفظي أو البدني ضد أي مِن العاملين في هذا المركز إنهاء العقد والطرد الفوري مِن المركز. إذا توافق على هذه الشروط فقم بالتوقيع أسفل الصفحة!!

يحتشد الطابق الأرضي بمكاتب المرشدات الاجتماعيات، وتلتصق على أطرافه صالتا طعام تَسَعُ كُلُّ واحدةٍ منهما المئات مِن الأشخاص، بينما تحتل إحدى زواياه مغسلة ملابس، بها عدد مِن ماكينات الغسيل الأوتوماتيكية التي تعمل بالعملات المعدنية. يتجوَّل عاصف مستكشفًا المكان، ثم يدخل إلى قاعة الطعام ويجلس على طاولة، كانتْ القاعة شبه فارغة مِن الأشخاص. يتساءل كيف سيمضي كل هذا الوقت الطويل في هذا المكان الموحش؟! إنَّها قرية صغيرة. في أثناء تجوُّله بين سكان المكان أحسَّ بأنَّ الأمور ليستْ على ما يُرام بين الجنسيات المختلفة، هناك وجوم مسيطر وتوتر يتجول في الأنحاء. تصعد إلى ذهنه ذكرى تلك التوترات بين ركاب القارب الذي رمى بهم في لجة البحر قبل وصولهم إلى شواطئ لامبيدوزا. يدخل باتريس الصالة حاملًا بين يديه أوراقًا كثيرة، رغم امتلاء جسمه فإنه يمشي برشاقة. يتجه نحو عاصف ليسأله:

- هل أنهيتَ إجراءات التسجيل؟

- نعم. الإجراء بسيط.

يستأذن عاصف في الجلوس ثم يقول:

- إنَّك تتحدث الفرنسية بصورة جيدة، أين تعلمتها؟

- درستها في الجامعة مع اللغة الإنجليزية، وعملتُ مترجمًا صحفيًا منها وإليها لبعض الوقت.

تعلو وجهه دهشة مرتبكة:

- مِن النادر أنْ أصادف طالب لجوء ذا تعليمٍ جيد، معظم اللاجئين السودانيين غير متعلمين، أو حتى أميين وقَدِمُوا مِن مناطق ريفية فيها صراعات.

يصمتَ لبرهة ثم يضيف سائلاً:

- كيف انزلقتَ إلى فخ الهجرة غير الشرعية؟

- لم يكن لدي خيار، كنتُ مرغمًا، لكن لماذا تسميه "فخ"؟

- لأنَّه أمامك درب طويل وشاق مِن الإجراءات والمواعيد الإدارية اللانهائية، عليك السير فيه دون ضمانات في أنْ تنال ما أتيتَ مِن أجله!!

يسأل عاصف بتوتر:

- ولماذا هو درب طويل وشاق، أتعجز فرنسا أنْ تجعله قصيرًا ويسيراً؟

يصمت باتريس للحظة ثم يقول:

- هي لا تعجز بالطبع، لكنها سياسة ماكرة تتبعها الحكومة

لصرف المهاجرين عن أراضيها!

يقول عاصف:

- يمكنها أنْ تصرفهم بصورة مباشرة!

- لن تستطيع، هناك قوانين أوروبية واتفاقات أممية حول حقوق الإنسان، واتفاقات حول حماية اللاجئين، وأحزاب يسارية متطرفة تمنعها مِن إصدار تشريعات ضد الهجرة. لكنها تتبع سياسة "التثبيط" مع اللاجئين، وهي سياسة تجعل الحكومة في منأى عن الانتقادات!

- ماذا تعني بـ "التثبيط"؟

- بمعنى إرهاق طالبي اللجوء بدنيًا ونفسيًا، إنَّها تَحْرِم كثيرًا منهم مِن حقوقهم الأساسية في السكن والرعاية الصحية والغذاء السليم والنظافة، وأنتَ واجهتَ هذا الوضع بكل تأكيد، أنا على يقين بأنَّك أمضيتَ كثيرًا مِن الوقت في الشارع متشردًا في انتظار أنْ تنالَ هذا المسكن البائس والمؤقت أيضًا، والذي ربما ستخرج منه قريبًا للشارع، ومحاصرتهم كذلك بإجراءات إدارية طويلة ومعقَّدة وجعلهم غير مستقرين إداريًا ليسيطر عليهم الإحساس طِوال الوقت بأنَّ وجودهم مؤقت، وربما يُرَحَّلُون إلى بلادهم في أية لحظة. كل هذه السياسات الأخيرة صُمِّمَتْ لتهميش وإقصاء المهاجرين بحجَّة أنَّ أعدادهم كبيرة، وتفوق التدابير التي تضعها الحكومة لاستقبالهم.

- وفِيمَ سيفيدهم هذا "التثبيط"؟

- لكي تمحو مِن أذهانهم تلك الصورة البرَّاقة لفرنسا بوصفها بلدًا يستقبل المهاجرين بصورة جيدة، ويوفر لهم كُلَّ

الفرص للاندماج، وبذلك يتوقف المهاجرون عن دعوة أهاليهم وأصدقائهم للهجرة إلى فرنسا، سيعرف مَنْ هم وراء البحر ألَّا شيئًا يستحق عناء ركوب مخاطر البحر... مع مرور الوقت لن يأتي أحدٌ، إنَّها سياسة طويلة النَّفَس وستؤتي أُكُلَها!

يصيبه حديث باتريس بالإحباط، يحسُّ أنَّه يدخل نفقًا طرفه الآخر مسدود. يتغلغل فيه الإحساس بالتسفيل. يمضي النهار متنقلًا بين وسط القرية، ومركز الإيواء وفضائه؛ محاولًا أنْ ينشئ حميمية بينه وبين المكان الذي ربما يمضي فيه وقتًا طويلًا، لكنه يعرف أنَّه في ورطة. يشقُّ القرية طريق رئيس واحد، تتوزَّع على أطرافه المتاجر الصغيرة وهناك بار ومرقص ليلي لا يُرَحَّبُ بالأجانب فيهما. يفهم أنَّ سكان القرية ينزعجون مِن مركز الإيواء، ولا يخالطون ساكنيه على الإطلاق. تسكن مركز الإيواء جنسيات مختلفة إلا أنَّ الود بينهم مفقود، وتحكم علاقاتهم كثيرٌ مِن الصراعات العبثية؛ لذا يحسُّ عاصف بذبذبات مِن التوتر تملأ فضاء المكان. يحاول أنْ يفكر في الجانب الإيجابي مِن وضعه الراهن: له سقفٌ يؤويه، وغطاءٌ يضعه على جسده ليلًا. كانتْ باريس قاسية، تصلَّبَتْ مؤخرته مِن الجلوس على الأرصفة الأسمنتية والمقاعد الخشبية، سكن البرد عظامه، وتحجَّرَتْ معدته مِن أكل طعام الجمعيات الخيرية البائس.

يجلس مساءً في المطعم لتناول وجبة العشاء المكوَّنة مِن الفراخ وشرائح البطاطس المقلية، يحاول أنْ يقترب مِن السودانيين، يحسُّهم غير مبالين، وكُلٌّ منهم منطوٍ على أوجاعه، إنَّ شخصياتهم تتغيَّر في هذا السياق الجديد، تفرض عليهم هذه الظروف أنْ ينتهجوا سلوكًا جديدًا. يجلس بالقرب مِن مجموعة

يتوسطها شابٌ طويل، يبدو عليه الغضب والانفعال. يسلَّم عليهم ويضع طعامه، ردوا له التحية بحميمية كأنَّهم يتناولون عشاءهم منذ فجر البشرية سَوِيًّا، لكنه يفهم أنَّ ذلك جزءٌ مِن سلوكهم غير المكترث، علَّمتهم الدروب الطويلة التي قطعوها خلال هجرتهم أَلَّا علاقات دائمة، بما أنهم عابرون فكُلُّ شيء عابر ومؤقت فلا يَلُونه كثير اهتمامٍ. فهم مِن سياق حديث الشاب أنَّ طلبَ لجوئه رُفض مِن قبل المكتب الفرنسي لحماية اللاجئين، كان يحكي بغضبٍ كيف أنَّ العاملة الاجتماعية سردتْ له أسباب الرفض التي يرى أنَّها غير منطقية، كان يقول مغتاظاً:

- كيف تقول إنَّ موظف الأوفبرا يرى أَنَّني لم أعطِ تفاصيل كافية عن ظروف اعتقالي، أنا حكيتُ كُلَّ شيء، عن اعتقالي بوصفه تجربة عشتها، قلتُ كُلَّ شيء أعرفه.. هذا سبب غير مقنع للرفض، ثم كيف يطالبني أنْ أُقَدِّم أدلة على قصتي؟! لا يمكنني أنْ أُقَدِّم دليلًا، هل أطلب مِن رجال الأمن الذين اعتقلوني أنْ يرسلوا لي شهادة اعتقال؟! أم أطالبهم بأنْ يُحَرّرُوا التهديدات التي رموا بها في وجهي أمام شهود في مكتب محامٍ ثم يرسلوها لي؟! أم أطالب المهرب الذي هَرَّبني إلى ليبيا بشهادة تهريب مطبوع عليها ختمه الشخصي. إنَّه سخف شديد، إنهم لا يرغبون بنا؛ فمِن الأفضل أنْ يقولوا لنا صراحة اذهبوا وابحثوا عن مكان آخر للجوء!

يحاول جاره أنْ يواسيه:

- حاول أنْ تُحَسِّن القصة عند تقديمك للاستئناف في المحكمة الوطنية لحق اللجوء.

لكنه يردُّ بغضبٍ:

- هذه قصتي الحقيقية التي عشتها، لن أستطيعَ أنْ آتي بأشياء مِن خيالي. هل تصدق أنَّ ضابط الأوفبرا ذكر أنَّ قصتي التي قلتُ بها مكررة ولا جديد فيها، وأني حكيتُها بحياد تام كأنّي أحكي قصة شخص آخر! أي جنون هذا! أنا أتيتُ مِن دارفور والذي حدث لي حدث مثله لمئات الآلاف في دارفور، بمعنى أنَّ قصتي ستتطابق مع قصص الآلاف مِن طالبي اللجوء في فرنسا، وهو أمر متوقع. كما أنَّني حكيتُ القصة ببرود، ذلك لأني حكيتُها عشرات المرات للموظفين وللمترجمين أثناء إعداد ملف طلب اللجوء، واستنفدتُ كُلَّ طاقتي الشعورية تجاهها، حتى أنَّني سئمتُ منها وأصبحتُ فعلًا ألقيها بآلية رتيبة! المشكلة أنني أمضيت سنوات طويلة من عمري أخطط لعبور البحر نحو أوروبا، كنت أعتقد أن كل مشكلاتي ستحل وسأعيش في نعيم دائم إذا وصلتها، لكني الآن أصل لأجد نفسي محاصرًا بمشكلات معقدة ودائرية، ولا تنتهي أبدًا، هذه البلاد لا تستحق هذا العناء!!

- يمضي بعضُ الوقتِ في رفقتهم. ثم يحسُّ فجأةً أنَّ العِصابة الحمراء تحزُّه في رسغه. يفكر لماذا أبقى عليها طِوال هذا الوقت، هل أصبح يخشى أنْ يهاجمه القط الذي ظهر له في إيطاليا عندما فكَّر التخلص منها. إنَّها تضايقه، يحسُّ أنَّها تضغط على حلقه أكثر من حذها لرسغه. يخرج مِن المطعم وهو عازمٌ على التخلص مِنها. يحسُّ أنَّ الوقتَ أزف لكي يتخلّصَ مِن هذه الوصمة، تبدو غريبة على معصمه، وتُثِيرُ كثيرًا مِن التساؤلات في أعين محاوريه. مَرَّ على المطبخ المشترك، أخذ سكينًا صغيرًا ثم دخل إلى الغرفة. كان بُشارة مقرفصًا على طرف سريره، يقضمُ في

قطعة خبز بِوَجَلٍ، يركّز نظره على سقف الغرفة. لا يهتم كثيرًا لحضور عاصف في المكان. ينزع عاصف ملابسه، ثم يأخذ السكين ويجلس على طرف السرير. عندما يمسك بالعِصابة ليقطعها يعلو نبيح مجموعة كبيرة من الكلاب تحت النافذة بصورة مباغتة، يصرخ بشارة بصورة مكتومة، يرتجف على سريره ويزداد تقرفصًا. عندما يضع عاصف مشفر السكين على العِصابة تهاجم الكلاب النافذة وهي تنبح بجنون، يقفز بشارة على عاصف ويرتمي على حجره، ثم يتشبث برقبة عاصف، تزداد الكلاب نباحًا ويزداد هو ضغطًا على عنق عاصف، يحاول عاصف فكاكًا، قبضة بشارة قاتلة، عندما تسحب الكلاب، إذ تنبح بصورة هستيرية، أظافرها الطويلة على زجاج النافذة، يحس عاصف بسائل حار يسيل على حِجْره لينزلق نحو رجليه. يفهم أن بشارة يتبول من الرعب. يستمر بشارة في التشبث بعنق عاصف بينما يصرخ صرخات قصيرة ومكتومة ومرعبة، حتى يرتبك عاصف ويتصدر له الرعب فيرمي بالسكين بعيدًا. بعدها انسحبت الكلاب سريعًا وهي تزمجر بلؤم. ترتخي يدا بشارة القابضة على عنق عاصف، ثم ينهار باكيًا على السرير قريبًا من عاصف. يصبح الوضع مربكًا، هناك خطل ما، كان عاصف حانقًا بشدة لكنه يصمتّ، يحس أن خطل ما يصيب بشارة، يحمله ويضعه في سريره الخاص مثل طفل صغير. ثم يغيّر ملابسه المبتلة، يحضر ماءً لبشارة المرعوب!

****

تمضي الأَيَّام رتيبةً وبلا جديد، ينتظر عاصف أنْ يتمَّ استدعاؤه للمكتب الفرنسي لحماية اللاجئين وعديمي الجنسية لمناقشة طلب لجوئه، وقصة اللجوء التي كتبها مبررًا طلبه الحماية مِن

الحكومة الفرنسية. ضَمَّنَ قصته أنَّ حياته مُعَرَّضَة للخطر في بلاده، لأنَّه يرفض التعاون مع أجهزة الأمن التي تطلب مِنه العمل مخبرًا وسط زملائه الصحفيين، وتبتزه بتسجيل للحظة حميمية مع حبيبته صفاء عبد الرحيم. لكن انتظار الاستدعاء يطول ولا يمكن التنبؤ بنهاية هذا الانتظار. ذكرتْ له العاملة الاجتماعية أنَّ المكتب الفرنسي يعمل جاهدًا على دراسة هذا العدد الضخم مِن طلبات اللجوء التي تُرْسَل له كل يوم، لكن الأمر يتجاوز قدراتهم، عليه أنْ ينتظر. يعني له الانتظار أنْ يُعَلِّق كثيرًا مِن آماله على مشجب الزمن، وهو مشجب لا يمكن الوثوق به. ليس هناك شيء يقيني. مضى كثيرٌ مِن الوقت، ولم يحصد سوى انتقاله مِن الشارع إلى مركز لإيواء اللاجئين يقع في قرية منسية، ويشاركه الغرفة شاب نصف مخبول!! يا له مِن تطور كاسح! وطوال هذا الوقت تفتر روحه وتنهار هِمَّتُه مِن يومٍ لآخر. هل ما حدث له في الخرطوم يستدعي كل هذا العنت لمعالجته؟! كُلُّ يومٍ يفقد ثقته في هذه البلاد، كيف تكوَّنتْ في ذهنه هذه الصورة المثالية عنها؟! تضجره، أثناء تجواله في القرية ومتاجرها، نظرات السكان الفاحصة، وبعض الأحيان المستفزة والمترصدة، تحاصره هذه النظرات وتزيده عزلةً. عندما كان متسكعًا في لاشابيل بباريس لم يكن يأبه له أحد، لم يحس أنَّ هناك مَنْ يَتَرَصَّده، أو يستاء مِن وجوده برغم الفوضى الكبيرة التي يحدثها اللاجئون في أماكن تجمعاتهم، لكن هنا السكان مترصدون، وكثيرًا ما يسمعهم يهمهمون بغضبٍ عند مروره، يحسُّ أنَّهم غير راضين عن وجودهم في هذا المكان. بعض أصحاب المتاجر لا يقبلون البيع لهم إلا عن طريق البطاقات البنكية بحجَّة أنَّهم يخشون العملة المزيفة، أو أنَّهم لا يملكون أجهزة كشف عن العملة الورقية، أو

يتعللون بأنهم لا يملكون الفكة لإرجاع المتبقي، وتتعقد حياة اللاجئين لأنَّهم لا يمتلكون بطاقات بنكية، والبطاقات التي يملكونها لا يصلح الشراء عن طريقها. أصبح يتجنَّب النزول للقرية إلا عند الضرورة القصوى. لكن الأحداث تأخذ منحى آخر عندما يتوقف ذات صباح حفَّار كبير عند الفراغ الممتد شمال مركز إيواء اللاجئين، تتبعه شاحنات كبيرة تحمل مواد بناء متنوعة. في مساء ذات اليوم عندما يفتح نافذة غرفته يرى أنَّ حوائط المنازل التي تطلُّ عليها نوافذ مركز الإيواء مُعَلَّق عليها ملصقات ضخمة مكتوب عليها باللغة الفرنسية والعربية والإنجليزية شعارات واضحة:

(فلتغادروا قريتنا)

(نحن لا نرغبُ بكم)

(عودوا مِن حيثُ أتيتم)

فيدرك أنَّ شيئًا خطيرًا يستثيرُ سكانَ القرية ضدهم.

الفصل التاسع

تلباثيا

نسيتُ أنْ أخبرك بشيء قد لا يكون مهمًا، لكن أظنه شيئًا فريدًا ولا يتكرَّرُ كثيرًا، لا أستطيعُ أنْ أَجزمَ بذلك، فهي مسألة لا يمكنُ رصدها بالوسائل الظاهرية. لم يسبقْ لي أنْ تحدَّثتُ بشأنها مع أحدٍ. لكني استوثقتُ من فَرَادَتِها بأساليبٍ عِدَّة. أنا يا سيدي لا أستطيعُ أنْ أحلمَ في المنام بصورةٍ مستقلَّة! بمعنى أنَّني لا أرى إلا أحلامَ الآخرين التي أكونُ أنا جزءًا مِنها، أي أظهرُ أو أشارك في أحداثها! عندما يراني أحدُهم في حلمِهِ سأشاركه أنا بصورة تلقائية رؤية هذا الحلم في الوقتِ ذاته. عندما لا يحلمُ بي أحدٌ لا أرى أنا أحلامًا في نومي. نعم! إنها مسألة غريبة، واستغرقتْ مِنّي كثيرًا مِن الوقت لأَتحققَ مِنها، وعندما أيقنتُ مِنها توَّقفتُ عن الاستقصاء لأنّي بدوتُ وقتها مثل ساحر عجيب!

بدأ كُلُّ شيء عندما تمَّ قبولي في المدرسة الابتدائية، وأصبحَ لي زملاء نتآنسُ سَوِيًّا عند فسحة الإفطار، وبين الحصصِ المدرسية. أصبحتُ جزءًا مِن عوالمِ التلاميذ النهاريّة الصاخبة، والتي كثيرًا ما تُرسِل الذي عجزتْ عن تحقيقه أثناء النهار ليتحقق في الأحلام الليليّة. عندما يُقابلُنِي صديقٌ مِن التلاميذ ويقول لي:

- رأيتُكَ في نومي بالأمس!
- وما الذي حدث؟
- أخذنا الكرة لنعلب في الميدان لكن..
- وطأت الشاحنة الكرة وأتلفتها!

يصيح بدهشة:

- كيف عرفتَ ذلك؟!!

أكونُ قد رأيتُ الحلم ذاته ليلةَ البارحة. عندما تكرَّرت المواقف المشابهة وأصبحت تُقَابَلُ بالدهشة مِن أصدقائي التلاميذ؛ توَّقفتُ عن الحديث في هذا الشأن، لكن في بعضِ الأوقات كنتُ أضطر لمواجهة من يستدعيني إلى أحلامه! تعملُ أمي بائعة فطائر أمامَ بوابةِ المدرسة الرئيسة، تأتي كُلَّ يومٍ قبل أنْ يُقْرَع جرسُ فسحة الفطور للجلوس قريبًا مِن البوابة وتعرضَ بضائعها على التلاميذِ. كان هذا الأمر يُدمي قلبي كثيرًا، وأرى فيه إهانة شخصية؛ وكثيرًا ما يلمزُنِي التلاميذ معايرين بمهنة أمي. أمي طيبة وتريدُ لي كل الخير وكانتْ تُفْهِمُني أنَّها تعمل لأجلي لأنَّ أبي يعيش في عالم مِن الأوهام ليس فيه ضروريات تُلْبَى، أو أسرة تُرْعَى؛ وفشلتْ كُلُّ محاولاتها لإنزاله للأرض. أنا أفهمُ لكن غيري لا يفهمُ. وما يزيدُ الأمر سوءًا أنَّ أستاذ عبد الجبار مدير المدرسة كثيرًا ما يقفُ أمام باب المدرسة ليصيحَ في أمي:

- لا تبيعي طعامك الملوث هنا، سأبلغ ضابط الصحة عنك، هيا ارحلي مِن هنا، ولا تعودي مرَّة أخرى!

لتأخذَ أمي فطائرها وتبتعدُ. عندما يدخل أستاذ عبد الجبار للمدرسة تعودُ أمي مرَّةً أخرى خلسة؛ لتعرضَ فطائرها التي يحبُّها التلاميذُ. كثيرًا ما يأخذُ منها فطائرها ويهدِدُّها، لكنها لا تستطيعُ أنْ تتخلى عن المهنة، لأنَّها لا تستطيعُ أنْ تتخلى عن الحياةِ. ذات ليلةٍ رأيتُ أستاذ عبد الجبار في نومي، رأيتُه يدخل بيتنا، أمي جالسة لوحدها في الفراندا وأنا غير بعيد منها أذاكرُ دروسي، الوقتُ ليل. يتقدَّمُ ناحيةَ أمي ويمسكُ يدها ليسحبها داخل الغرفة، قاومتْه أمي قليلًا لكنها انقادتْ له سريعًا، يغلقُ الباب عليهما. رغم أنَّ البابَ المغلق الذي ينبغي أن يحجبني لكني رأيتُه

يدفع أمي على السرير، تُحَاوِلُ أمي أنْ تصدَّه برجليها، عندها أخذتُ قطعةَ حجرٍ كبيرة، أخذتُ أصيح وأضرب على الباب بقوة، أمي تدفعُه بقدميها وأنا أضربُ الباب بالحجر، هنيهة وتراجعَ أستاذ عبد الجبار، ثم فتحَ الباب وولى هاربًا. صحوتُ مفزوعًا، وعندما نهضتُ وجدتُ الحجر ذاته الذي استخدمته في الحلم قابعًا بالقربِ مِن حذائي، لا أعرف كيف أتى إلى المكان، أخذتُه ووضعتُه في حقيبتي المدرسية وذهبتُ إلى المدرسة. كنتُ أعرفُ أنَّ الحلم لا يخصُّنِي، بل يخصُّ أستاذ عبد الجبار، هو الذي رآه وأنا شاركتُه الرؤيا فقط. كنتُ حينها في الصف الرابع الابتدائي. كنتُ حانقًا لأنَّه أرادَ سوءًا بأمي. عندما رنَّ جرسُ الفطور أخرجتُ الحجر مِن حقيبتي وعدوتُ نحو مكتب عبد الجبار، ووقفتُ له في الباب شاهرًا قطعة الحجر الكبيرة:

- لماذا أردتَ أنْ تقتلَ أمي بالأمس في نومك؟

نهضَ مِن مكتبه عندما رأي الحجر على يدي وصاح:

- اِرْمِ الحجر مِن يدك!

- رأيتُك تغلق عليها باب غرفتنا، وشرعتَ في قتلها!

صاح في وجهي:

- .أمجنونٌ أنت؟، اِرْمِ الحجر على الأرض!

لكني رميتُ الحجر صوب وجهه، واستطاع أنْ يتفاداه؛ فأصاب زجاج النافذة وهشَّمَه. أمسك بي المدرسون. استدعوا أمي سريعًا، حاولتْ أنْ تضربني لكن أستاذ عبد الجبار منعها، ثم أخذوني إلى شيخ الخلوة الذي قرأ على رأسي كثيرًا مِن القرآن، ومسحَ بيدِهِ على كل مكان مِن جسدي. بعد هذه الحادثة توَّقف

أستاذ عبد الجبار عن طردِ أمي مِن أمام المدرسة، وأسمعُه يقولُ همسًا أَنَّني ممسوسٌ!

كُنَّا نسكن حيًّا طرفيًّا أنشأه الفارون مِن حروبٍ كثيرة في مناطق مختلفة مِن بلدي، كان قريةً أكثر مِنه حيًّا مدنيًّا.. كثير مِن سكان المكان يعملون في المدينة الكبيرة، واستطاع كثيرٌ مِنهم أنْ يتجاوزَ نكبة الانتقال مِن مناطقهم الأصلية إلى هذا المكان الجديد تمامًا، والذي بدأوا فيه حيواتهم مِن الصفر. في البدءِ سكنوا في خيامٍ توزِّعها المنظمات الأجنبية، وطعموا مِن أغذية الإغاثات، لكن مع الوقتِ تحوَّلت الخيام إلى بيوت طينية، وتعلَّم الأبناءُ وامتهن كثيرٌ مِنهم مِهَنًا جيدة، وبدأتِ الحياةُ في المكان في التغير، وجاءتِ الحكومةُ بالتخطيط والكهرباء والماء. ظهرتْ طبقاتٌ برجوازية، وظهر البناء الأسمنتي والعمارات الصغيرة، وأصبحتْ تسيطر قيمُ المدينة الكبيرة، وضاعتْ كثيرٌ مِن قيم الأمكنة التي أتوا منها.

لم تكن بي رغبة في البقاء في هذا المكان، بي رغبة عظيمة في الفرار مِن حاضر مخزٍ. يعيشُ أبي في فصام كبير، يتوهَّم نفسه في كثيرٍ مِن الأوقات أميرًا للمؤمنين، ويضعُ على عاتقه تصحيح وضع المسلمين؛ فيخرج للطرقات والمساجد معتمرًا عمامته، يحملُ سيفًا قديمًا، يخاطبُ عن ماضي الأمة المشرق وحاضرها المظلم. وفي أوقاتٍ أخرى يرتدي بدلة قديمة، حتى أنَّها تبدو سريالية وتتقمصه شخصية مأمور إنجليزي، وعندها يتحدَّث إنجليزية مريعة هي خليط مِن النوبية والإنجليزية والعامية السودانية التي ينطقها بِلَكْنَةٍ أجنبية. كان شبابُ الحي يتسلون به، يخوضون حوارات عبثية معه غالبًا ما تنتهي بمطاردته لهم.

لم يحلمْ بي أبي على الإطلاق، مما يعني هذا أنني لستُ جزءًا مِن عالمه، كان هذا الأمر يؤلمني في قلبي، لذا كنتُ أفكر في الهروب مِن المدينة برمتها. عندما امتحنتُ الثانوية العليا، وسمعتُ أنَّ هناك منحًا تقدمها الحكومة الفرنسية لطلاب سودانيين، تقدمتْ بملفي للسفارة الفرنسية، وحصلتُ على المنحة بيسر لأنَّ معظمَ الطلاب تقدمُوا للمِنَحِ البريطانية والأمريكية خوفًا مِن اللغة الفرنسية التي لا تُدَرَّس بصورة موسعة في المدارس الثانوية، كنتُ وقتها في التاسعة عشرة مِن عمري، وبدتْ لي كأنَّها فرصة تأتي مِن السماءِ لتنقذني مِن المستنقع الذي كنتُ فيه!

لا يراني الناسُ كثيرًا في أحلامهم؛ لذا قد يمرُّ وقتٌ طويل دون أنْ أستطيعَ أنْ أشارك أحدهم في حلمٍ، لكن في بعض الأحيان يحدُثُ أنْ يراني أكثر مِن شخص في أحلاهم في اللحظة ذاتها، عندها أصاب أنا بالتشويش، إنَّها حالة أشبه بالذي يحدث عندما يتداخل البث الإذاعي أو التليفزيوني بقنوات الاتصال اللاسلكي!

ذات مرَّة، بعد أنْ غادرتُ مدينتا إلى باريس بشهورٍ عديدة، أمضيتُ ليلةً محتشدة بالأحلام الجميلة، رآني كثيرٌ مِن سكان حيّنا في أحلامهم في تلك الليلة، أحلام متتابعة تداخل القليل منها فقط. عشتُ سلسلة مِن الأحلام المتتالية رآها زملاء دراستي وجيراننا في الحي، استيقظتُ مبتهجًا إذْ لم يكُن في تلك الأحلام ما يزعج، لكنها كانتْ المرَّة الأخيرة التي يحلم بي أحدٌ مِن حيّنا، كأنَّهم أرادوا في تلك الليلة التخلص مِن حضوري في ذاكرتهم، كأنَّهم شيعوني إلى مقبرة الذاكرة، ولم يفكر فيَّ أحدٌ بعدها البتة.

عندما سكنتُ باريس في بداية مرحلتي الجامعية، لم أكن أظهر في أي حلمٍ مرتبط بالمكان، كنتُ غريبًا عن أحلام الباريسيين.

أذكر أنَّ المرَّة الأولى التي رآني فيها إنسان في باريس، كان ذاك الزبَّال الفرنسي الذي أصادفه كُلّ يومٍ صباحًا عندما أرمي بقمامتي عند برميل القمامة المنصوب عند مدخل المبنى، ينتظرني حتى أرمي بقمامتي، ثم يسحبُ البرميل نحو عربة النفايات المتوقفة في مكانٍ قريب. رآني ذلك الزبال في الحلم وأنا أسحبُ برميل القمامة نحو العربة، بينما يقف بعيدًا يدخن سيجارة وينظر ناحيتي شامتًا. عندما خرجتُ في اليوم التالي صباحًا حاملًا قمامتي، كان يستعدُّ لسحب البرميل، قلت له ضاحكاً:

لا مانع لدي أنْ أصبحَ زبَّالًا، لا تقلق!!

نظر لي بدهشةٍ ومضيتُ، تركتُه يسبح في ذهوله. في الواقع لم يرني الباريسيون في أحلامهم كثيرًا، هي مرَّات معدودة فقط. رأتني ذات مرَّة العاملة الاجتماعية التي تشرفُ على ملفي في صندوق المساعدات الاجتماعية، كنتُ أقف ضِمن حشدٍ كبير في مرقص ليلي وكانتْ العاملة ترقصُ مُعْتَلِية منصة والجمهور يهتف لها بحماسٍ، أظنُّ أنَّ الحشدَ يتكوَّن مِن مجموع الأشخاص الذين تشرفُ على ملفاتهم الإدارية؛ وإلا فإنَّه لا مبرر لظهوري في حلمها هذا. دائمًا ما أظهرُ، في الأحلام القليلة التي رآني فيها الباريسيون، كعنصر هامشي: فَرْدٌ في حشدٍ يتدافعُ لركوب القطار في أوقات الذروة، أو شخصٌ يجلسُ على طاولة في مطعم ضِمن عشرات الأشخاص، بمعنى أَنّني غالبًا ما أظهر فقط كجزء مِن ديكور المكان!!

مِن الأشياء التي تؤلمني أنَّ آن ـ صوفي لم ترني في أحلامها سوى مرَّة واحدة طوال السنين التي جمعتنا معًا، كنتُ في بعض الأحيان أَشتاقُ أنْ تراني في أحلامها، خصوصًا عندما تذهب

لتمضي أيام العطلات مع أسرتِها في تلك القرية التي تقع عند الحدود الفرنسية الإسبانية. كنتُ أنامُ باكرًا، وقت غيابها، لكيلا تحلمُ بي وأنا مستيقظٌ؛ فتضيعُ مِنّي رؤيتها! لكنها لا تحلمُ بي للأسف!

رأتني آن ـ صوفي في حلمها الوحيد عندما كُنَّا وقتها نستعد لاستقبال مولودنا. رأتْ هذا الحلم في الليلة التي سبقتْ تمامًا ذهابنا للمستشفى. كان الحلم مُرْبِكًا ومضجرًا. رأتْ آن ـ صوفي نفسها في غرفة الولادة، أقفُ أنا في زاوية الغرفة مرتديًا الأزياء المُعَقَّمَة ذاتها التي يرتديها الطاقم الطبيّ، وتغطي فمي وأنفي كمامة زرقاء. تتم عملية الولادة بيسرٍ كبير، عندما يصرخُ طفلنا في لحظة ولادته، أتقدَّمُ أنا لرؤيته، كان طفلًا جميلًا، بشرته بيضاء كالثلج، وعيناه خضراوان، وشعره كستنائي طويل وناعم. عندما أمدُّ يديّ لأضعه بين يديّ وأضمُّه إلى صدري، يدفع بي رجلٌ آخر غريب الشكل، تُغطي الكمامة الطبية نصف وجهه، وتلمع عيناه بلؤم، ثم يأخذ الطفل بين يديه ويستدير خارجًا، نظرتُ إلى آن ـ صوفي مستفسرًا، وضعتْ يدها على رأسي وحرَّكتْها بلطفٍ ثم قالت:

لقد وهبنا طفلنا للإنسانية كما تمنَّيْتَ أنتَ دائماً!!

الفصل العاشر

جحيم سانت لويس

أصبح عاصف يتبادلُ كثيرًا مِن الحديث مع بُشارة بعد حادثة تشبث بُشارة بعنقه. يحسُّ أنَّ بُشارة عاش مأساةً كبيرة في وقتٍ سابق. إنَّه منطوٍ على نفسه طوال الوقت، لا يتحدَّثُ كثيرًا عن مشاريعه المستقبلية، يخرج مرَّة واحدة في اليوم لتناول طعام الغداء فقط. أصبح عاصف يحمل له في بعض الأحيان ساندويتشات وفواكه. تنازلَ بُشارة عن قليلٍ مِن حذره تجاه عاصف، وأصبح يحادثه مِن وقتٍ لآخر.

أصبحتِ أجواءُ القرية مشحونة بالتوتر، أصبح العداءُ صريحًا والنظرات الغاضبة تحاصرهم مِن كُلِّ جانب، لكن ساءتْ الأوضاع أكثر صبيحة الإثنين، وكان هو الإثنين الأخير من الشهر، والذي يُقَام فيه السوق الشهري المتنقل، لذا كان كثير مِن سكان القرية منتشرين في ساحة السوق التي تشكل جزءًا مِن ساحة التحرير الممتدة في المساحة بين مبنى البلدية وكنيسة القرية. يَرَى عاصف حشدًا مِن المتظاهرين يتقدم نحو الساحة يحملون لافتات احتجاجية مكتوب عليها: لا لتوطين اللاجئين في قريتنا، فلْنَحْمِي هويتنا القومية! بينما عاصف يتجوَّل بين مناضد العرض المنتشرة في ساحة السوق، يتوَّقفَ. يزيد مِن بؤسه ما يرى! تعربدُ الأفكارُ السوداء في رأسه، إنَّه يمرُّ الآن وسط هؤلاء الباعة وهم يسبونه في سِرّهم، هم يكرهونه ولا يرغبون به، إنَّه خطرٌ على وجودِهم، إنَّه ثقيلٌ على قلوبهم كغَم مقيم! تتقدَّم المظاهرة إلى أنْ تصل ساحة الحرية، يتوَّقف المتظاهرون حول منصةٍ صغيرة، يصعد أحدهم المنصة فتجمع المتسوقون حولها، يبدأ

الحديث بنبرة جادة:

- كما رأيتم، تعاقدتْ الحكومة مع شركة بناء لتشييد ألف وحدة سكنية لتوطين طالبي اللجوء الذين يحصلون على الحماية في قريتنا. نحن ضد هذا القرار، وتقدمنا برفض مُسبب ومبين في هذه المذكرة التي وقَّع عليها أكثر مِن ثلثي الكلية الانتخابية للقرية، وسنقوم بتقديمها للعمدة بعد قليل، الفرصة متاحة للتداول!

تحملُ فتاة صغيرة ميكروفونًا متجوّلًا، تقفُ به في واجهة الحشد، ويحمل رجل خمسيني عُصَابَات رأس وأعلامًا صغيرة مطبوع عليها اسم الجبهة الوطنية يوزّعها على المتظاهرين.

يمسكَ أحدُهم مكبر الصوت ويتحدَّث بصرامةٍ وعبوس:

- نحنُ نرفضُ توطينَ اللاجئين هنا، لأنَّهم يشكلون خطرًا على التركيبة الديموغرافية للقرية، ذلك لأنَّ المهاجرين يتوالدون بكثافةٍ مثل الأرانب البرية؛ مما سيؤدي حتمًا لتغير التركيبة السكانية والهُوِيَّة الدينية للقرية، وربما بعد عشر سنوات فقط نصبح أقليّة في قريتنا، وربما تُحَوَّل الكنيسة إلى مسجدٍ، وربما يُفْرَضُ على بناتنا الالتزام بالحجاب، حتمًا سيسيطرون على المتاجر، وتصبح عندها كل المنتجات التي تباع (حلال) إنَّه سيناريو كابوسيّ، تحقَّقَ جزءٌ مِنه في ضواحي باريس ولا نتمنى أنْ نراه هنا!!

يبتعدُ عاصف عن مكان المظاهرةِ، ثم يستديرُ عائدًا نحو مركز الإيواء، يحسُّ بالتحقير، بالانهزام، يحسُّ أنَّ ما أَتى مِن أجله ينهارُ

تمامًا، كيف استطاع أنْ يفكر أنَّ الفرنسيين سيفتحون أحضانهم وخزائنهم له؟! كيف طَمِعَ أنْ يدمجوه وأنْ يقدّموا له كل شيء على مِلْعَقة ذهبيّة إلى أنْ يستطيعَ الاعتماد على نفسه؟! مِن أين جاءتْ كُلُّ هذه التصورات المثالية؟! مَنْ الذي غرس في ذهنه هذه الصورة المشرقة؟! إنَّه يمقتُ نفسه الآن كما لَمْ يمقتها مِن قبل، وبينما يلج مأوى اللاجئين كان قد قرَرَّ كُلَّ شيء، دخل على مكتب المرشدة الاجتماعية وقال لها:

- أرغبُ في أنْ أرحلَ إلى مركز إيواء لاجئين آخر؟

تلقي عليه نظرةً غير مكترثة، ثم تقول بحسم:

- غير ممكن بالطبعِ.

- إذَنْ سأغادر هذا المبنى في الغد، لا رغبة لي في الاستمرار هنا.

تردَّ بلا مبالاة:

- إنَّه قرار شخصي يخصُّك أنتَ لوحدِكَ، لكن عليك أنْ تعلم أنَّ خروجك مِن هنا سيترتب عليه حرمانك مِن السكن، وإيقاف المساعدة المالية الشهرية وفقًا للعقد الذي قمتَ بتوقعيه.

- لا يهمني، سأغادر!

- إذَنْ سَلّمْنِي مفاتيح الغرفة صباح الغد، هذا شأن يخصك!

يصعد إلى الغرفة، يلملم أغراضه سريعًا، يخاطب بُشَارة الذي كان مقرفصًا على أحزانه الثقيلة:

- سأغادرُ هذه القرية اللعينة غداً!

يُخْرِج بُشَارة رأسَه مِن بين ركبتيه كسلحفاة حزينة:

- وستتركني هنا!

يجيبه عاصف بضيق:

- وماذا بوسعي أنْ أفعل لك؟

يصمت بُشَارة ويدخل رأسه بين ركبتيه. لكن بعد وقتٍ قصير يأخذ المبادرة، ويحكي لعاصف ببؤس وشقاء كبير. يدرك عاصف أنَّ الحياةَ في عبثيتها الممعنة قد حاكتْ لِبُشَارة مصائر وأحوال في غاية التعقيد! كُلُّ الذي حدثَ ابتداءً أنَّ والد بُشَارة المدعو خاطر حامدين، وهو رجلُ شدّة وبأس، رجلٌ مَهِيب عند عشيرته التي كانتْ تسكن غرب دارفور، قبل أن يصاب الأقليم بذاك الوباء البشري، وفي ذاك المساء بينما هو عائدٌ مِن مجلس الرجال تحت شجرة التبلدية الكبيرة التي تقع عند مدخل القرية، مِن ناحية الوادي، تقف عربة رباعية الدفع قبالة التبلدية الكبيرة مثل همّ مُقيم، تطغى أنوارها الكاشفة القوية على لهيب نار الحطب اليابس التي يتحلقون حولها بسكينة مضطربة، على ظهر العربة يتوزع رجال ملثمون يرتدون ملابس عسكرية بالية وينصبون آلة قتل رهيبة أعلاها، ينزل منها مُلثمٌ يعرفونه كما

يعرفون بؤس حالهم، يتأبط بندقية آلية وتلتف حول خصره أحزمة من الرصاص الذهبي اللون، يجلسَ على طرف حلقة الرجال المنعقدة منذ ساعات، يسألهم بصوت جهير دون حتى أن ينزع عمامته:

- ماذا قررتم؟!

يمتد الصمت أكثر فأكثر، يطأطي الرجال المتحلّقون حول النار رؤوسهم، يعبث البعض منهم بأعواد صغيرة على الرمل المسكوب تحت أقدامهم الجافة.

يجيل الملثم بصره في حلقة الرجال، تلتمع عيناه، مثل ضبع لئيم، على ضوء اللهب، يمسح فوهة بندقيته الآلية بخرقة يحملها ثم يهتف:

- هذا المكان لن يسعنا معًا، إما هُمْ أو نحن؟

يرفع خاطر حامدين رأسه ويتنهد بصوت كسير:

- لكنه يسعنا منذ مئات السنين، أوقفوا هذه الفتنة.. إن خسرنا حُسْن جوارهم فلن ينفعنا ما تسكبهُ من مال لا نعلم من أين تأتي به ولماذا يعطونه لك؟

يضرب الملثم الأرض ببندقيته ويعدل من شريط طلقات الرصاص المعقود على صدره:

- أنت تخشى الحَرابة[2] يا حامدين، لا تريد أن تنْسلّ من

٢- الحرب

بين أوراك بنت خادم الله! إن أبيتَ الحرابة اليوم سينتزعها الزُرْقَة[3] من سريرك غدًا وستبكي يومها مثل النساء!

ينهض حامدين غاضباً:

- لا شأن لك ببنت خادم الله!

لا تزال حلقة الرجال تزدرد الصمت والقهر، يعرف أنهم يستسلمون، فيغادر الحلقة سريعًا إلى بيته. عند منتصف الليل يُوقظ زوجته بنت خادم الله، ويقول لها هامساً:

- لم يعد لنا مكان في هذه البلدة!

لا تجادله كثيرًا، ترتب ما هو ضروري مِن طعام وملابس في خِرْقَتَين. تحمل طفلها بُشارة ذا الأربعة أعوام على كتفها. ويتلفحُون الليل الطويل ويخرجون. يحرص خاطر أنْ يسلكَ حُوشِي الدرب، لا يرغب أنْ يعثرَ عليه الفزع الذي سيطلقُ يقينًا في الصباح ليقتص دربهم، فلن يتركه زعيم الميليشيا يفر هكذا، إما أن يحمل السلاح ويَقْتُل الزُرْقة وإما يُعْدَم. كانوا يسيرون ليلًا ويختبئون نهارًا. تطاردتهم الكلاب المتوحشة والمرافعين طوال ليالٍ، في كل ليلة تحاصرهم الكلاب، يهشها حامدين هشًا عن بُشَارة الذي يصِاب برعبٍ كبير، في كثيرٍ مِن الأحيان تخدشُ الكلاب بشارة بأظافرها وهي تصارع أباه بوحشية، بعد ليالٍ طويلة تصل الأسرة إلى معسكر للاجئين في شرق تشاد، ولا تفارقْ ليالي

٣- القبائل الافريقية في دارفور

الرعبِ الطويلة ذهنَ الصغير بُشَارة، وأصبح عندما يسمعُ عواء الكلاب في الليالي المقمرة يتبولُ على فراشه في الحال، وترافقه تلك العادة حتى عندما يذهبَ به أبوه ويودعه خلوةٍ لتحفيظ القرآن، فتحوَّل أيَّامَه فيها لجحيمٍ لا يُطَاق. يربطه شيخ الخلوة على عمود خشبي ويضربه، يحرمه مِن الطعام عندما يفعلها بشارة على الحصير المخصص للنوم. يشكو التلاميذ أنَّ الحصير يمتصُّ البول؛ فتصبح رائحة المكان نتنة ولا تطاق. عندما يبلغ مِن العمر عشر سنوات، يفرَّ بُشارة خاطر حامدين مِن جحيم الخلوة إلى مناطق التعدين الأهلي عن الذهب في شمال تشاد، ويعمل هناك صبيًا لامرأة تشادية تبيع الطعام للمعدِّنين، وهم خليط مِن التشاديين والسودانيين والنيجيريين. يعيش سنوات جيدة في ذلك المكان ذلك لأنَّه لا يوجد ولا كلب واحد بسبب أنَّ الماء شحيح، فوجود كلب يعني استهلاكًا إضافيًّا للماء، وهو ما لا يرغبُ فيه أحد. بعد سنوات مِن العمل مع المعدِّنين يجمع بشارة مالًا جيدًا فيقرر الاغتراب إلى ليبيا بغرض توفير مبلغ مِن المال يعينه على شراء جهاز لكشف المعادن، لكنه بعد سنتين فقط مِن إقامته في ليبيا وعمله في مزرعة بعيدة عن المدينة يملكها ليبي، تسوءُ الأوضاع الأمنية بعد الثورة فيقرر بُشَارة ركوب البحر إلى أوروبا، لم تكن أوروبا ضمن أحلامه ومخططاته، لكن حديث الجميع عنها، وسهولة الوصول إليها أغراه بالمحاولة. يصل سريعًا إلى إيطاليا. رافقَ المجموعة ذاتها مِن السودانيين التي عبرتْ معه، كان هؤلاء السودانيون يقصدون فرنسا ولهم اتفاق مع مُهَرِّب أنْ

يوصلهم حتى باريس. بعد أيَّام مِن السفرِ والاختباءِ يجد بُشَارة نفسه في باريس، يودّعه الرفاق، ويأخذ كُلٌّ منهم اتجاهًا. عندما وصل فرنسا كان عمره سبعة عشر عامًا. يرسله البوليس على الفور إلى مركز مساعدة الأطفال باعتباره قاصرًا لم يبلغ الثامنة عشرة. في أَوَّل مقابلة أخبر المشرفة التربوية أنَّه يريد العودة إلى بلاده. تسأله العاملةُ ذاهلة:

- ولماذا تريد العودة؟

- الكلاب؟

- ماذا تقصد بالكلاب؟

- الكلاب هنا في كل مكان! كلاب مرعبة وضخمة، أنا أخافُ الكلاب!

تناقشتْ المشرفة مع زملائها، وقرروا بما أنَّه قاصر؛ فلن يستطيعوا إرجاعه لبلاده، لذا عليه أنْ يكملَ الأشهر القليلة المتبقية لكي يبلغ الثامنة عشرة، وهي سِنُّ المسئولية القانونية، ثم يُحَوَّل لمكتب الهجرة والاندماج. وبالفعل يتَمَّ تحويله لمكتب الهجرة والاندماج بعد أنْ يمضي كل الأشهر المطلوبة داخل مركز حماية الأطفال خشيةً مِن الكلاب، يعلنَ لموظف مكتب الهجرة عن رغبته في العودة إلى بلاده، يخبره الموظف بإمكانية ذلك لا سيما أنَّ مكتبَ الهجرة والاندماج يقترحُ برنامجًا للعودة الطوعية به كثيرٌ مِن الحوافز، فقط عليه أنْ يكتبَ خطابًا يوضح الأسباب

التي تدفعه للعودة، وأنْ يأتي بخطاب مِن سفارة بلده تُصَرِّح بموافقتها على سفره بوصفه مواطنًا مِن مواطنيها، وهنا تحديدًا تتعقد الأمور أكثر مما تصوَّر!

في صباح اليوم التالي يحَزَمَ عاصف أغراضه ويقول لِبُشَارة وهو يودعه:

- سأغادر هذه القرية الملعونة، افعل ما قلتَ لك؛ وإلا ستنتهي حبيسًا في مصحة كئيبة!

يذهب عاصف نحو محطة القطار البائسة دون رغبة في النظر ناحية القرية كأنَّه يودع الجحيم، كان مبتئسَ القلبِ، يحسُّ بإهانة عظيمة وبتسفيل لذاتِه أعظم، عندما يأتي القطار "يفخ" وهو على يقين بأنَّه اتخذَ القرار الصحيح!

الفصل الحادي عشر

شـيخوخةٌ هادئـة

قَدِمْتُ إلى باريس يافعًا، وبلا تَمَثُّلَات واضحة عن البلادِ وأهلها، كنتُ جَزِلًا بِتَخَلُّصي مِن مدينتنا الباهتة، ومِن تاريخي المُخْزِي، أحسستُ بأنّي وُهِبْتُ فرصةٌ جديدة لأحيا. تصيبني باريس بالدهشة، لم أكن أتوقع أنَّ هناك مكانًا بمثل هذا البهاء على سطح البسيطة. كُنَّا منعزلين عن العالم ونعرفُ فقط أنَّ مَنْ هم شمال المتوسط متطورون ومتحضرون، لكن لا تصورات واضحة لنا عن ماهِيّة هذا التطور وشكل هذا التحضر. تم تسكيني في "الكامبس" الجامعيّ. لم أكن أتحدَّث الفرنسية لكني أتحدَّث الإنجليزية بصورةٍ مقبولة وساعدني ذلك في إنجاز الإجراءات الإدارية الأولية بيسرٍ، ثم انخرطتُ بعدها في دراسة اللغة الفرنسية في مركز اللغويات التطبيقية بالجامعة. أجدتُ اللغة بسرعة لأنَّها صادفتْ هوى كبيرًا في نفسي. أمضيتُ شهورًا وأنا أستكشفُ المدينة الكبيرة، معالمها وساحاتها ومتاحفها، تمنيتُ لو أَنَّني وُلِدْتُ فرنسيًّا، إنّها أمةٌ عظيمة! أكملتُ دراستي الجامعية في وقتها، وحصلتُ على وظيفةِ مترجمٍ في وكالة للترجمة، ثم حصلتُ بعدها على الجنسية الفرنسية. قدَّمتْ لي فرنسا كل شيء، الدراسة المجانية والرعاية الصحية والمأوى والطمأنينة والسكينة؛ ففرحتُ بأنْ أُنْسَبَ لها، وعاهدتُ نفسي أنْ أظلَّ وفيًا لها، فهي وطني حقًا، وما الوطن يا سيدي؟!!

أمضيتُ سنواتي في باريس وحيدًا، كانتْ علاقتي بالمكان أمتن منها بالبشر، بمعنى أنَّ علاقاتي الاجتماعية محدودة ولا تزعجني هذه المسألة بتاتًا. أمضي أوقات فراغي في الجلوس في المنزل والقراءة أو في التنزه في الشوارع والساحات. حتى الضجر الذي أحسُّه في بعض الأوقات جرَّاء وحدتي لم يكن يؤرقني، كنتُ أتقبَّله كأمرٍ طبيعي محتوم وأتصالحُ معه، وأظنُّ نفسي سعيدًا. عندما تحاصرني الرغبة الجنسية غالبًا ما أقصد غابة بولونيا مساءً

وأجلبُ عاهرةً مِن الإفريقيات، أو مِن فتيات جزر المحيط، وفي بعضِ الأحيان مِن فتيات شرق أوروبا؛ لأَنَّ أسعارهن مناسبة ولا تضر بميزانيتي الشهرية. تمضي الواحدة مِنهن الليل معي ثم تغادر صباحًا. يحدثُ هذا الأمر في فتراتٍ متباعدة، ربما مرَّة كُلّ شهر، لا أُنْشِئُ أي علاقات صداقة معهن، وأتجنَّبُ في كُلّ مرَّة اللائي أمضين أمسيات معي. أرسل لأمي مصروفًا شهريًا أظنه يكفيها لتعيش بكرامة. لم تكن بي رغبة في العودة إلى السودان على الإطلاق.

كانتِ الحياةُ تمضي هكذا إلى أنْ ظهرت آن ـ صوفي فاتخذتْ حياتي بعدها منحى آخر، بالأخص عندما جاءتْ آن ـ صوفي لتسكن معي في شقتي. غيَّرتْ آن ـ صوفي كُلَّ شيء. بها رغبة عظيمة للاحتفاءِ بالحياةِ على طريقتها! رمتْ بالأثاث القديم وغير المتناسق وغير المتجانس، كما قالتْ هي ذلك، وأبدلتْهُ بأثاثٍ أنيق تصيدتْهُ مِن موقع لبيع الأغراض المستعملة على الإنترنت. يملأ حضورها ورائحة جسدها البيت، كنتُ أراها في كُلّ مكان، عندما أفتح ثلاجتي أرى أنَّها لم تَعُدْ تلك الثلاجة الممتلئة بالأطعمة المجمَّدة منتهية الصلاحية في معظمها، بل حلَّ محلها كثير من الخضراوات مثل الخس والقرنبيط والكرنب والبروكلي والبازلاء، والتي لم تكن ضمن ثقافتي الغذائية. تتراص على دولاب المطبخ أنواع مِن الشاي الطبيعي وشاي الفواكه والشاي الأخضر والنسكافيه والاوفالتين والقهوة السوداء والكريم المُبْيّض، كنتُ قبلها أضعُ صندوق شاي طبيعي واحد وعلبة قهوة عربية يتيمة. أصبح دولاب ملابسي منظمًا، الملابس فيه نظيفة ومطبقة بصورة جيدة. وفراشنا دائمًا مُنَظَّم وعليه شراشف نظيفة. أصبحتُ أعيشُ على الطريقة الفرنسية، وآكلُ على الطريقة الفرنسية. أمضيتُ السنوات الطويلة التي سبقتْ معرفتي بـ آن ـ صوفي في الأكل مِن المطاعم التركية والعربية، وهي تُقَدِّم طعامًا

في معظمه قاسٍ على المعدة، لكن بعد آن ـ صوفي تعلَّمتُ أنْ آكلَ على الطريقة الفرنسية، وهي طريقة صحية وممتعة لأنَّك تحسُّ أنَّ الطعامَ مقدَّسٌ يُؤكَل بمحبةٍ وبتمهل وطقوس جميلة. تحققتُ بوصفي مواطنًا فرنسيًّا أكثر بعد اقتراني بها! أصبح مِن وقتٍ لآخر يرنُّ تلفون الهاتف في منزلي، والذي ظل صامتًا على مدار سنوات، لأسمع أصواتًا فرنسية حقيقية هي أصوات والدي آن ـ صوفي وأصدقائها.

لكن كان أكثر ما يسوؤني منها اقترابها كثيرًا مِن المهاجرين وطالبي اللجوء، أظنُّ أنَّها تُكَرِّس لهم وقتًا أكثر مما ينبغي. دائمًا ما تعملُ أثناء الليل على حاسوبها الشخصي، تمضي ساعات طويلة في العمل والكتابة، ويزعجني ذلك، وكلما أقتربُ منها تقوم هي بإغلاق الشاشة، تكرر هذا الأمر كثيرًا، في كُلّ مرَّة أدنو منها تقوم سريعًا بإطفاء الشاشة. وعندما تترك حاسوبها في البيت أحاولُ أنْ أَطَّلِعَ دون علمها على الملفات التي فيه، ولكن دائمًا ما يطلبُ مني الجهاز إدخال كلمة مرور. كنتُ أظنُّ أنَّها تعملُ على ترجمة قصص اللجوء مِن العربية للفرنسية، فهي تجيد العربية التي تعلمتها عندما أقامتْ مع والدها في سوريا لسنوات، تلك القصص التي يحكي فيها طالبو اللجوء أسباب طلبهم للجوء والمخاطر التي تحيق بهم حال عودتهم إلى بلدانهم، وظننتُ أنَّها لا تريدني أنْ أَطَّلِعَ على ذلك بسبب تحفُّظِي على اندفاعها الكبير في خدمة هؤلاء المهاجرين، لكن حين أُتيحَتْ لي الفرصة ذات مرَّة للنظر خلسة إلى ملفاتها، أُصِبْتُ بإحباط كبير مما رأيت، وكانت مأساتي التي لم أستطع تجنبها!!

لا، على الإطلاق يا سيدي، لا تظن أَنَّنِي أُعادي المهاجرين غير الشرعيين مِن بني جلدتي، أَنا فقط أشفق عليهم لأنَّني أدرك جيدًا العَنَتَ الذي سيواجهونه في هذه البلاد، والعَنَت الذي سيسببونه

لها. إنَّهم قومٌ بدائيون، يحتاجون لوقت طويل لكي يستوعبوا نُظم وقيم الحضارة الغربية المعاصرة. كان يمكن لفرنسا أنْ تستوعبهم دون ضررٍ إذا وصلوا بأعداد بسيطة؛ لكنهم الآن مئات الآلاف، وينشرون الفوضى في كُلّ أنحاءِ الجمهورية، يربكون كل شيء. تعيش فرنسا الآن في ذهولٍ مما يُحْدِثُه هؤلاءِ الوافدون بقيمها ونظمها، إنَّه أمرٌ فظيع حقًا، وأتفَهَّم لماذا يبغضهم الفرنسيون. ثم إنَّ منظومة المفاهيم هنا تتجاوز قدرات هؤلاء الوافدين على الاستيعاب، وكثيرًا ما يقعُ عليَّ أنا شخصيًا عبء ردمِ هذه الهوة المفاهيمية، بوصفي الوسيط أو المترجم. سأعطيك مثالاً: يستخدمُ الموظفون الفرنسيون لغة إدارية رفيعة، وهي غير مصطَنعة، في تعاملهم مع اللاجئين السودانيين وغالبيتهم من الأميين، وجاءوا مِن قُرَى صغيرة منقطعة عن الحضارة الحديثة، ولم يسبق لهم أنْ أنجزوا معاملةً إدارية واحدة في حياتهم؛ لذا يصعبُ عليهم فهم الترجمة التي أُقَدِّمُها ويطلبون مني مزيدًا مِن الشرح، أحاولُ أنْ أوضحَ للموظفين الفرنسيين أنَّ حديثهم مُعَقَّد وغير مفهوم لهؤلاء الناس، وأنَّ لغتهم رفيعة، بعضهم يرد بردود مِن شاكلة:

- لا أَستطيعُ أنْ أرتدَّ إلى الأمية؛ يجب أنْ يفهم اللاجئون أنَّ الحياةَ هنا معقَّدة، ويجب أنْ يرتقوا لفهم هذا التعقيد. الحياةُ معقَّدة لأنَّها مُرَفَّهة وتُلَبِّي احتياجات الإنسان الذي هو الأكثر تعقيدًا في هذا الكون الفسيح!

أو ردود مِن نوع:

- لا أستطيعُ أنْ أَرُدَّ فرنسا إلى القرون الوسطى.. هذه فرنسا القرن الواحد والعشرين!

أنا أتفهَّمُ ردودهم وأعاني مثلهم في إيصال هذه المفاهيم الإدارية التي لا مُعَادِل لها في أذهان اللاجئين، في الحقيقة ضَجِرَ

الموظفون، وفقدوا كُلَّ أملٍ في أنْ يرتقي المهاجرون إلى مستوى النظام الإداري الفرنسي فانتهجوا البطء في الإجراءات بوصفه وسيلة احتجاجية. تسألني كيف ذلك؟ حسنًا، سأوضح لك. يظنُّ الناس هنا أنَّ البطء الذي يلازم النظام الإداري الفرنسي أصيل ويتضرر مِنه الجميع، لكن في الواقع أنَّ هذا البطء يواجه فقط طالبي اللجوء، وهو بطء مُتَعَمَّد، ونوعٌ مِن العصيان يمارسه موظفو الحكومة مِن الفرنسيين ضد القوانين والتشريعات المتهاونة التي تجعلُ المهاجرين غير الشرعيين مِن البرابرة يستهدفون فرنسا؛ لذا هم يحتجون بجعل إجراءات هؤلاء اللاجئين تستغرق سنين مملة، يهدفون طبعًا إلى صرفهم عن البلاد بصورة سلمية، أنا أرى أنَّه أسلوبٌ متحضر للرفض. أحاولُ أنْ أوضح هذه المسألة لأولئك الذين يفكرون في العبور لشمال المتوسط في كتابي "لذا لا يرغب الفرنسيون بكم!"، فقد خصصتُ لها فصلًا كاملاً يشرح تعقيداتها تفصيلًا، وعزَّزْتُ الشرح برسوم كاريكاتورية عن سخف الإدارة الفرنسية معهم. ماذا قلتَ؟ تريد رؤية بعضها؟ نعم لدي نموذجان منها في حاملة أوراقي، ها هما، انظر إليهما؛ كم هما صريحان!

سأعرض كتابي "لذا لا يرغب الفرنسيون بكم!" على اللجنة الأوروبية لمكافحةِ الهجرة غير الشرعية، أطمحُ أنْ تطبعه اللجنة بكمياتٍ كبيرة، وأنْ يُوَزَّع الكتابُ على نطاقٍ واسعٍ جنوب البحر الأبيض المتوسط؛ لكي تكون لشباب تلك الأنحاء رؤية واضحة عن الذي ينتظرهم قبل إبحارهم نحو شمال المتوسط. فرؤوسهم مَحْشُوَّة بالأوهام والتطلعات غير الواقعية البتة. هم يظنون أنَّ الأوروبيات ينتظرنهم بلهفةٍ على حافة البحر، لكن والحق يُقَال، مع أكوام الهراء الذي يسكن رؤوسهم، لن تقبل أوروبية بأي منهم على الإطلاق، فالفوارق الحضارية هائلة، ويصعب الإحاطة بها، ويظنون، يا لبؤسهم! أنَّ الحكومات الأوروبية تتلهفُ لأيديهم العاملة، لكن أوروبا تعاني مِن بطالةٍ مزمنة، إنَّ أوروبا تشيخ اقتصاديًا، هذه حقيقة بائنة يا سيدي،

لكنها تريدُ، فالأمر يخصها، أنْ تمضي شيخوخة هادئة!

الفصل الثاني عشر

جـيـغـولـو

الوقتُ ذروةَ الشتاء في فبراير عندما يعود عاصف إلى لاشابيل يحملُ خيبتَه وسخطه وبؤسه. يعود إليها بعد شهورٍ طويلة أمضاها في مركز إيواء طالبي اللجوء في قرية سانت لويس. لم يطرأْ على المكان تغيير كبير سوى أنَّ أعدادَ المهاجرين زادتْ كثيرًا. وأصبح مِن العسير أنْ يجدَ مُتَّكَأً لظهره. لكن الشارع فسيح ولا يبخل على مَنْ يرتمي في أحضانه بمكانٍ كما يظنُّ. ظلَّ كُلّ شيء على ما هو عليه. دكتور طارق يقبع في المكان ذاته لكنه أصبح أكثر انشغالًا والحديث معه يقتضي انتظارًا، وأصبح لا يردُّ على المكالمات الهاتفية إلا قليلًا، ربما ينسيه هذا الانشغال خيبته الشخصية، لاشيء أكيد في هذا المكان، ربما هي خيبةٌ ألبستْها له الميكانيزم التي تنشئُ الشائعات، والتي تستطيعُ أنْ تصنعَ مِن تفصيلةٍ عابرة قصصًا مذهلة، فالفراغ عريض والبؤس مستحكم والخيبات هي الأصل. يجدُ أنَّ عكاشة لَبَش قد ازداد نفوذًا، وأصبح الكثيرون يتطلعون للحديث معه دون أنْ يجدوا فرصةً، أصبح له معاونون ينسقون له كل شيء، عندما يأتي لاشابيل فإنَّه يأتي عابرًا، ولا يمكثُ كثيرًا مِن الوقت، يتهامس الجميع بأنَّه أصبح ثَرِيًّا وأنَّ وكالة السفر التي أُفْتُتِحَتْ في المكان تتبعُ له، وأنَّه يتخذها ستارًا لتجارة العُملة بين أوروبا والسودان. ازدادت المطاعم السودانية ومحلات البقالة المتخصصة في المواد الغذائية التي يستهلكها السودانيون. مازالت أسمريت يماني تعتصم بمكانها، فقط ازدادت حقائب "الصواريخ" الصغيرة التي يأتمنونها عليها، أصبح المكان كأنَّه مقلبٌ للقمامة. تزداد أسمريت نحولًا وشحوبًا ويطفح الألم مِن وجهها. إنَّه ألمٌ كبير؛ كأنَّها تحمل آلام كُلّ مَنْ بالمكان إنابَة عنهم!

يذهبُ عاصف إلى جمعية الهلال الأحمر؛ لينشئَ عنوانًا بريديًّا بطرفهم يتلقى فيه الخطابات الإدارية. كان ينتظر خطابًا واحدًا مصيريًا، الخطاب الذي سيتمُّ استدعاؤه بموجبه للمكتب الفرنسي لحماية اللاجئين وعديمي الجنسية لمناقشة طلب اللجوء الذي تقدَّم به. يعلمُ أنَّه انتظار غير محدود بسقف، ولا يحكمه منطق، فقد يحدث أنْ يتمَّ استدعاء طالب لجوءٍ بعد شهرين فقط مِن تقديمه لطلب اللجوء، بينما ينتظر آخر سنوات حتى يتمّ استدعاؤه. فالانطباع السائد أنَّ الأمر لا يحكمه نظام، لذا يصبح الانتظار جحيميًّا ويرافقه توترٌ كبير.

يتسكعُ عاصف في الأنحاء، يزدادُ انكسارًا، يحسُّ بأنَّه لم يعد عاصف الذي كان في الخرطوم، حتى صفاء أصبحتْ ذكرى ثقيلة تجثمُ على قلبه، لم يعد يحب تذَكُّرَها، وإذا جالت بخياله سريعًا ما يتخلصُ مِنها. يحسُّ أنَّ احتياجاته المادية البسيطة أصبحتْ تسيطرُ عليه. ينهضُ في الصباح بينما يفكر كيف سيحصل على وجبة إفطار جيدة. إضافةً للجمعيات الطوعية التي تأتي مع مواعيد كل وجبة إلى لاشابيل، تُقدِّم بعض الأسر وجبات ممتازة في أوقاتٍ متقطعة في شارع فلاندر، أو بالقربِ مِن رصيف نهر السين، فأصبح يتصيَّدُ هذه الوجبات ويحسُّ انتصارًا عظيمًا عندما ينالُ واحدةً مِنها. أو يمضي النهار متسكعًا في الصفوف أمام مخازن الجمعيات التي تقدم للمشردين ملابس مستعملة، يصبحُ كُلُّ همّه أنْ يختارَ حذاءً جيدًا يحمي قدميه مِن البرد اللعين، ومِن تسلل مياه الجليد الذائب في الأيَّام المشرقة، أو أنْ يختار رداءَ للبرد مضمون الفاعلية. وعندما تنخفض درجة الحرارة في الأمسيات وفي الليل "يفخ" بِمُكْرٍ على متن "الباصات" جيدة التدفئة، أو

يركبُ قطارات الأنفاق على الخطوط الطويلة، كأنْ يركب مثلًا القطار الإقليميّ السريع الذي يربط شمال باريس عند مطار شارل ديغول بجنوبها عند مطار أورلي، ويقطع القطار هذه المسافة في وقت طويل ينامُ عاصف خلاله داخل القطار الدافئ والهادئ جدًا لا يزعجه إلا مرور شرطة النقل التي طَوَّر استراتيجيات تجنُّبِها أو التعامل معها بِمُكْرٍ؛ إذا وقع في يدها صدفةً. وعندما تتوقف القطارات عن العمل عند الواحدة صباحًا في أيَّام الأسبوعِ، أو عند الثانية صباحًا في يومَي العطلة الأسبوعية، وتغلقُ جميع محطات المترو أبوابها، وعندما يكون البرد شديدًا ولا يقاوم، يتسللُ عاصف لباصات الليل التي تعملُ حتى الخامسة صباحًا، ينتقل مِن باص إلى آخر حتى الصباح ليعودَ بعدها إلى لاشابيل ليبحث عن إفطار دافئ، ثم يدخل حديقة لويس دو مارياك؛ لينصب خيمته البلاستيكية الصغيرة وسط مئات الخيام، وينزلق داخلها لينام حتى منتصف الظهيرة، لينهض بعدها ويقف في صف وجبة الغداء. يمضي فترة بعد الظهيرة في التسكع على أرصفة شوارع لاشابيل والثرثرة مع اللاجئين، يذهبُ مرَّة واحدة في الأسبوع للوحدة المحلية لجمعية الصليب الأحمر في الدائرة الثامنة عشرة؛ ليتفحص صندوق بريده، لكن خطابه المنتظر لا يأتي أبدًا. في بعض الأحيان يغتسلُ، ويحلقُ لحيته المهملة. لم يعد يأبه للطريقة التي يقضي بها حاجته، كان هذا الأمر يزعجه في أيَّامه الأولى، لأنَّ الحمامات العامة قليلة في المكان، وأصحاب المحلات لا يسمحون لهم باستخدام حماماتهم المخصصة للزبائن فقط، لكن الآن دائمًا ما يجد حيلة صغيرة يستخدمها لقضاء حاجته بسلام! أصبح يحسُّ بأنَّه شيءٌ مِن مجموع الأشياء التي يحتشدُ بها المكان، إنَّه لم يعد يذكر حتى لِمَ هو هنا؟!

في غمرة بؤسِهِ وتَشَيُّئِهِ وبينما يسير متسكعًا بلا هدى في شارع فيليب دو جيرارد ذات مساءٍ، خالي الذهن مِن كُلّ شيء تتوقف قريبًا مِنه عربة مرسيدس سوداء، يصيحُ له صوت مِن داخلها أنْ يصعدَ، عندما ينحني وينظر داخل العربة يجد أنَّ على المِقْوَدِ عكاشة لَبَش، بدا له كنجمٍ سينمائي، أو كمغني راب ثرِي. تردَّدَ قليلًا لكن ابتسامة عكاشة الواسعة والمسامحة شجَّعَتْهُ على الركوب. يكتشفُ أنَّ تَمَثُّلَاتِه السلبية السابقة عن عكاشة قد تلاشتْ تمامًا كأنَّها لم تُوجَد مِن قبل. يحسُّ أنَّه أمام شخص ناجح عَرِف الكيفية التي يحاورُ بها هذا السياق الجديد، تذكَّر عاصف فجأة ذلك الشخص الذي ساعده على الهروب مِن المعسكر في إيطاليا وتذكَّر مقولته " أوروبا هذي قارة عظيمة تحرسها قيمٌ ومبادئ ومواثيق عظيمة! لكن هذه المنظومة لم نصنعها نحن ولم تُصْنَع لأجلنا. إنْ أردتَ العيشَ هنا عليك أنْ تخرقَ هذه المنظومة، عليك أنْ تدوسَ بقدميك القذرتين على مبادئها دون أنْ يرفَّ لك طَرْفُ جفنٍ؛ لأنَّك بِكُلّ بساطة غير مُهَيَّأ للعيش وفق منطقها، أنتَ صنيعةُ منطق آخر، منطق مِعْوَج وكسيح!!"، أحسَّ أنَّ عكاشة فهم كُلَّ شيء سريعًا، لذا فهو الآن يرفلُ في رفاهته. تحدَّثَ معه عكاشة بهدوءٍ واثق:

- سأنسى إهانتك السابقة لي. أنتَ شخص متعلم وتجيد اللغة الفرنسية، وهيئتك مقبولة، بل أنتَ مليح، أستغربُ كيف لشخص بمثل إمكاناتك أنْ يتشرَّدَ وسط هؤلاء الرعاع. مَنْ تراهم هنا هم أشخاص فاشلون في بلادهم، وفاشلون هنا، طالما أنَّهم يستسلمون لهذا الوضع المزري، وسيفشلون في كُلّ مكان. إنَّهم يبحثون عن عصا سحرية تغير الواقع بضربةٍ، ويتوهمون أنَّ الحكومة

الفرنسية هي هذه العصا، هذا لا يمكنُ أنْ يحدثَ بتاتًا. أنتَ يمكنك أنْ تنهض، فقط كن واقعيًا وتخلَ عن المثاليات غير المجدية.

يصمتُ عاصف، يومئُ برأسه موافقًا. يواصل عكاشة متحمساً:

- يبلغ عدد اللاجئين من بلدان الربيع العربي الذين دخلوا فرنسا ضِعْف السودانيين، هل تراهم مشرَّدِين في الشوارع؟ هل تراهم يقفون في صفوف الجمعيات الخيرية بحثًا عن الطعام والملابس؟ لا.. ذلك لأنَّهم يحملون مقومات النجاح في داخلهم، إنَّهم يغامرون في البدءِ، ويفعلون كُلَّ شيء قانونيّ أو غير قانونيّ حتى يصححوا أوضاعهم، ثم يستقيموا ويصيروا مواطنين صالحين بعد ذلك، إنَّهم مُحِقُّون، إنَّهم يفهمون قوانين اللعبة يا صديقي...!

يحسَّ أنَّ فكرته القديمة عن عكاشة كانت غبية، ظنّه شخصًا ساذجًا تستغله عصابات القوادة في باريس، لكنه يكتشفُ الآن شخصًا آخر يعرفُ تمامًا ما يفعلُ، ويدرك مواهبه. يهمس له عكاشة:

- أنا أحتاجك لتعمل معي إنْ قَبِلْتَ، ستجني كثيرًا مِن المال، وتعيش بكرامة لو فتحتَ ذهنَكَ، وتخلَّيْتَ عن الهراء الذي أتيتَ به مِن السودان!

لم يك عاصف يحتاجُ كثير تفكيرٍ، فالهراء الذي يتحدَّث عنه عكاشة بدأَ في التساقط مِن تلقاء نفسه، يجيبَ عاصف بصوتٍ خفيض:

- لا أمانع...!

يبتسم عكاشة بارتياح:

- ما زالت الفرنسية التي حَدَّثتُك عنها ترغبُ فيك.

- أنا موافق.

يستدير عكاشة في شارع جانبي، ثم يدخل شارعًا كبيرًا، ويسير مسافة عشر دقائق، يتوقَّف في موقف للسيارات، ثم يجري اتصالًا، يتحدّث مع المرأة بفرنسية تقريبية، كانتْ مفهومة تمامًا، لكنها مَحْشُوَّة بالأخطاء النحوية والصرفية، بعدها يقول لعاصف:

- ستأتي هذه المرأة لتأخذَك مِن هنا، فقط انتظرها! وسنلتقي لاحقًا لنناقش عملك معي.

ينزلَ عاصف في موقف السيارات، ويغادرَ عكاشة على الفور. لم ينتظر عاصف كثيرًا، سريعًا ما تصل المرأة، توقف العربة قريبًا مِنه، ثم تلقي عليه نظرة فاحصة مِن أسفل قدميه إلى أعلى رأسه. ثم تنزل زجاج النافذة وتصيح له:

- عاصف؟

يتقدّم نحوها ويهمس:

- نعم، هو أنا.

- أنا ماري ـ روز.

- أتشَرَّفُ بمعرفتك!

يصعد العربة، ثم تنطلق به نحو شقتها، تلتفت نحوه بين الفينة والأخرى وتبتسم، يتأمل جسدها خلسة فيجدها شهية، ينبعثُ مِن مسجل العربة صوتُ المغنية (ليان فولي) العميق وهي تشدو:

لنا الحق جميعًا في أنْ نُحِبَّ حياتنا أو لا نُحبها،

في أن نسير على دربنا، في أنْ نختار ..

كلنا محقون في أنْ نُسَائل أنفسنا

وأنْ نتجرأ ونقول: لا!

يدير وجهه خارج السيارة، تأخذه بعيدًا كلمات الأغنية المحمولة على صوت (ليان فولي) المشبع بالحنين. كم مضى مِن الوقت بينما لا يسمع خفق الروح عندما تستدعيه موسيقى جَزِلَة وصوتٌ حنون؟! جعلتْه الأغنية يرتدُّ إلى أعماقٍ سحيقة بداخله، ردَّتْه إلى كهوف لمَّا يزرها منذ وقتٍ طويل، لكنه سريعًا ما يتخلَّص مِن تأثير الأغنية، ويرتدي لبوس اللحظة. تدخل المرأةُ العربةَ في الجراج الموجود أسفل البناية ثم يصَعَدَا بالأسانسير للطابق الثالث. دخلتْ أمامه الشقة، ثم تبعها. وقف في صالون الشقة بينما دخلت هي غرفة وخرجتْ سريعًا تحمل بيجاما، قالتْ:

- خذ هذه البيجاما والبسها بعد أنْ تغتسلَ بماءٍ دافئ. هناك صابون سائل مُعَقِّم موجود على طرف البانيو، أرجو أنْ تستخدمه. كما هناك فُرْشَاة أسنان موضوعة فوق المغسلة وبجانبها المعجون، خُذْ وقتك في النظافة، ليس هناك عجلة! هل تفهم الفرنسية جيداً؟

- نعم سيدتي!

يجيبها بينما يأخذُ البيجاما مِن يدها ثم يدخل الحمام. أصبح الاغتسالُ ترفًا لا يتطلعُ إليه كثيرًا في حياته اليومية، يذهب إلى حمامات الوحدة المحلية للصليب الأحمر في الدائرة الثامنة عشرة كُلّ أسبوعين مرَّة، يذهبُ عندما يحسُّ أنَّ القذارة تغطي جسمه بصورة لا تُطَاق. كان حمام ماري ـ روز واسعًا ونظيفًا

جدًا، يصعد إلى البانيو ويفتح ماءً دافئًا ليغمر جسمه، عندما يدعكَ جسده بالصابون المُعَقّم، يتغطى سطح البانيو بالماء العكر، عندما يكمل اغتساله، تتراكم كُتَلٌ صغيرة مِن الطين على جَنَبَاتِ الحوض، يحضر الفرشاة ويزيلها. يضع قليلًا مِن العطر بعد أنْ يحلق لحيته ويهذِّب شاربه، ثم يرتدي البيجاما. قبل أنْ يخرج ينظر لملابسه المعلقة على المشجب فيدرك يقينًا أنَّه أصبح مُشرَّدًا بائسًا وقذرًا ودون مِراء!

يجد ماري ـ روز جالسة في الصالون، ترتدي فستانًا أحمرَ قصيرًا، على طاولة قريبة مِنها تضع زجاجات نبيذ وكؤوسًا ومكسرات. تطلب مِنه أنْ يجلس في مواجهتها. عندما يتأملها يرى أنَّها جميلة رغم سنواتها الخمسين البائنة.

- يبدو أنَّ عكاشة جاءني بمن يناسبُنِي هذه المرة، أنتَ مليح !

- شكرًا، هذا مِن لطفك!

- كما أنَّك تتحدث الفرنسية. آووه لقد سئمتَ المعاشرات الصامتة، كم هي سخيفة ومُمِلَّة. بالنسبة لي تمثل اللغة أعظم اكتشاف عرفته البشرية!

- اتفق معك سيدتي!

ويتبادلان الكؤوس في غبطة، ومع كل كأس يحتسيه تنفك عقدة مِن لسان عاصف، ويصبح قريبًا منها، يتلهف أن يمسك بجسدها فتصده بتصنع وابتهاج، لكن قبل أنْ ينتصف الليل يكون قد اعتلاها ثلاث مرات متتاليات. لم يمارس عاصف الجنس في حياته إلا مرَّات معدودات، وواحدة مِن هذه المرات

عقَّدتْ له حياته للأبد، عصفت به وقذفته إلى الجحيم! وهي في قمة نشوتها تهمس له برضاء:

- سأسمح لك بالمبيت معي اليوم! لكن هذه المرة فقط، اتفقنا؟!

- حسنًا، أريد أنْ أغسل ملابسي؟!

تشير له دون تركيز:

- ضعها في المغسلة الأوتوماتيكية.

تصمت لبرهة، ثم تضيف مستدركةً:

- أرجو ألا تستخدم أغراضي الشخصية، لا أريدك أنْ تُعَقِّدَ لي حياتي!

- أنا أتفهم!

يصحو باكرًا، يكوي ملابسه سريعًا ويتناول إفطارًا أعدَّته ماري ـ روز، بينما يستعد للخروج، تسلمه خمسين يورو، ثم تهمس له بدلال:

- سأنتظرك في الويكند القادم، اتفقنا؟

- اتفقنا.

يعود إلى لاشابيل. حتمًا لن يحسَّ بغيابه أحدٌ؛ لأنَّه لا يرتبط بصداقة حميمة مع رواد المكان. لكن منذ دخوله إلى شارع فيليب دو جيرارد وحتى وصوله للساحة التي عند نهايته، كان المهاجرون ينظرونه باستغراب، وبعضهم ينظره بابتسامةٍ ساخرة، وبعضهم يعبسُ له في وجهه، حتى عندما وصل عند أسمريت يماني، يسألها

مستغرباً:

- لِمَ ينظرون لي هكذا؟

- لأنَّك نظيفٌ أكثر مما ينبغي، وملابسك مكوية ونظيفة، ومتعطر بعطر فاخر، ولم تقف في صف الجمعية لأخذ حصتك مِن الفطور، فكُلّ الدلائل تشير إلى أنَّ عكاشة اصطادك، وأنَّك أصبحت "جيغولو"!!

إذنْ لا شيء يمكن إخفاؤه في هذا المكان، لكنه لا يأبه! يتجوَّل قليلًا في الأنحاء إلى أنْ يلمح الفتاة الفرنسية تعرضُ مشروباتها فيتوجه نحوها، تسيطر عليه رغبة شديدة في احتساء قهوة سودانية، سبق أنْ تناول قهوة الفتاة ذات مرَّة فوجدها بالفعل جيدة المذاق.

تمنحه تلك الليلة التي أمضاها عند ماري ـ روز طاقةً جديدة، رغم أنَّها عمَّقَتْ إحساسه بالبؤس الذي يعيشه في لاشابيل. أصبحَ الآن لديه قليلٌ مِن المال؛ فتغيَّرت وفقًا لذلك حياته قليلًا. أصبح بإمكانه أنْ يتجنَّبَ طعام الجمعيات البائس، وأنْ يأكلَ في المطاعم السودانية طعامًا بلديًّا مثل البامية المفروكة مع الكسرة، أو الخضرة المطبوخة، أو حتى يأكل لحمًا مشويًّا على الجمر. كما أصبحَ يجلس عند المساء في البار المطل على شارع ماركس دورموى، يحتسي، خلال وقتٍ طويل كأسًا كبيرًا مِن الجعة ثمنه خمسة يوروهات، ثم يذهبُ بعدها لمتجر ليدل ليشتري نبيذًا أبيضَ، وعلب بيرة رخيصة يتسلى بها إلى أنْ يسرقه النوم تحت خيمته البلاستيكية المنصوبة داخل الحديقة. كان هذا تغييرًا كبيرًا وخلَّصه مِن كثيرٍ مِن الملل، لذا أصبح ينتظر ملهوفًا أنْ يأتي الويكند ليذهبَ عند ماري ـ روز يُنَظِّفَ نفسه،

ويتخلّص مِن رغبته الجنسية ويُحَصّل قليلًا مِن المال ليتسلى به في انتظار الويكند الذي يليه!

بدأ يظهر في لاشابيل نشاطٌ مريبٌ مِن سكان الحي الأصليين، حيث بدأوا يظهرون في الشوارع في تجمعات صغيرة، ثم يشرع صحفيون في زيارة المكان وإجراء استطلاعات، كما أصبحَ مِن المألوف أنْ ترى قنوات تليفزيونية تُصَوِّر المهاجرين وهم يلتحفون الأرصفة، وتُصَوِّر كذلك تجمعاتهم التي تملأُ الشوارع، يعرف عاصف مِن خبرته الصحفية أي رأي عام تسعى أنْ تُكَوِّنَهُ هذه الوسائل الإعلامية، يفرحُ البعض بأنَّ هذا التركيز الإعلامي ربما يُحَسِّنُ أوضاعهم، ويرى فيه البعض خطرًا يتهدد المكان بوصفه ملتقى للصواريخ مِن السودانيين القادمين حديثًا، ويوفر لهم أمانًا ومعلومات ضرورية لحياتهم بوصفهم طالبي لجوء لا يمكنهم العثور عليها بيسر بسبب حاجز اللغة، كما أن هناك المنتفعين مِن هذا الحشد مِن أصحاب المطاعم والصرافة والتجارة الصغيرة. لكن عاصف لا يُبَالِي، لم يعد يهتم كثيرًا بتقلبات الأحوال، أصبح همه أنْ يكسبَ مالًا ليعيشَ متعته الوقتية. لذا تعلَّقتْ آماله بعكاشة لَبَش. لكن عكاشة يصبح الوصول إليه صعبًا. حتى عندما يظهرُ في بعض الأوقات في وكالة السفر التي يُعْتَقَدُ أَنَّها تخصُّه، يسعى عاصف أنْ يقابله، لكن دائمًا ما يكون هناك كثير مِن الأشخاص ينتظرون عكاشة للحديث معه، أو لطلب خدمات معينة، يزدحمون حوله عندما يرونه ويحاصرونه، لكنه يتخلَّص مِنهم سريعًا ويغادر. يصيبه فشله في ملاقاة عكاشة ببؤسٍ حارق. يذهب عند ماري ـ روز يفكّر أنْ يطلبَ مِنها أنْ ترتِّبَ له لقاء مع عكاشة، لكنها بدتْ في الفترة الأخيرة مُعْتَلَّة المزاج، وتطلب

منه أنْ يعتليها كثيرًا، كأنَّها تحاولُ أنْ تنسى ما يعذّبها بانغماسها في الجنس. كان عاصف قادرًا على الدوام على تلبية احتياجاتها طالما تدفعُ المال.

مع مضي الوقت يكتشفُ أنَّ ماري-روز لم تكن سوى عجوز محبطة ومتشائمة، لم يرها جيدًا في أيامه الأولى معها؛ لأنَّه كان شديدُ البؤس، ويعاني حرمانًا جنسيًا مريعًا، لذا تبدتْ له جذَّابة، لكنه الآن يحسُّ أنَّه ينامُ مع كومة عظام مَحْشُوَّة في كيس مِن الجلد المتغضن، يحتاج كثيرًا مِن الكحول حتى يتسنَّى له أنْ يتخلَّصَ مِن فكرة دمامتها. أصبح يرى أنَّها غير سوية وكثيرة الاكتئاب، تسأله ذات مرَّة:

- لِمَ تركتَ بلدَكَ، وأتيتَ إلى هنا؟

- أبحثُ عن حياة أفضل!

- أتظنَّ أنَّ الحياةَ هنا جيدة؟

- بكل تأكيد، هنا الحرية والرفاهية!

تنظرُ في عينيه، وتقول بسخرية مرة:

- وهل تظنّ نفسك الآن مُرَفَّهَا وأنتَ مُجبر على العمل كجيغولو؟! هل تَظُنَّ أنَّ عيشَك مشرَّدًا يجسد التحقق الأمثل لحريتك!! أظنُّك تركتَ ما تبحثُ عنه في بلادِك! كان يمكنُك البقاء والنضال مِن أجل الحرية والرفاهية، وهل هناك أسمى مِن أنْ تُكَرِّسَ وقتَك لقضيةٍ تؤمن بها، إنَّه مشروعُ حياةٍ، يمكنُك أنْ تموتَ سعيدًا مِن أجله! للأسف ستلتهمُكَ آلة مدنيتنا الضخمة دون رحمةٍ، ولن تنالَ حريةً ولا رفاهية!

تصمت لبرهة وفي عينيها نظرةٌ مُفَرَّغَة مِن كل شيء:

- يجب أنْ تفهمَ أنَّنا نعيش في نظام قاسٍ بوحشية، لا يغرنَّك المظهر البديع لحضارتنا، إنَّه يخبئ في داخله قيمًا مريعة: هل تعلم أنَّ أبرز سمة لحضارتنا هي اللامبالاة! إنَّنا لا نُبَالي ببعض، لا نكترثُ لبعضنا، كلما كنتُ أكثر لا مبالاة فأنتَ أكثر تحضراً! نحترمُ القوانين التي تُنَظِّم علاقاتنا، إنَّنَا نعبدُ هذه القوانين، المكتوب منها وغير المكتوب، ببلاهةٍ مضجرة! هل تظنّني سعيدة؟! أنا أملكُ شقة وسيارة وحسابًا بنكيًّا، ومعاشًا جيدًا، لكنني مهملة ولا أحد يأبه لي! أبحثُ عن السلوى قُرْبَ شابٍ مُشَرَّد وبائس، أدفعُ له لكي يعاشرني، إنَّه يعاشر نقودي، يا للهول!

****

تدور الشائعات في لاشابيل بكثرةٍ؛ بسبب الحضور الإعلامي الكثيف، يتحدَّث البعض عن أنَّ السلطات الفرنسية ستمنحُ كُلَّ الموجودين في المكان الحماية على الفور دون النظر لطلبات اللجوء التي تقدَّمُوا بها، ويتحدَّثَ أخرون عن أنَّ الفرنسيين سَيُرَحِّلون الذين استكملوا إجراءات اللجوء في كل مراحلها ولم يحصلوا على الحماية إلى السودان، وأنَّ هناك اتفاقًا تمَّ مع الحكومة السودانية لقبول هؤلاء اللاجئين المُرحَّلِين. ويشيع البعض أنَّ كُلَّ شخصٍ لديه قريب مِن الدرجة الأولى في بريطانيا سَيُرَحَّل إليها، لم يكن هناك شيءٌ يقينيٌّ. أصبح الترقب مسيطرًا إلى أنْ صحتْ لاشابيل ذات صباح ربيعي وقوات كبيرة مِن البوليس القومي والبوليس البلدي تنتشر في المكان؛ رغم كُلَّ التوقعات لكن الهجوم باغت الجميع. حاصرتْ الشرطة المكان مِن كُلّ جَنَبَاتِه. وقفتْ مجموعةٌ كبيرة مِن "الباصات" في ساحة

لاشابيل. كانت هناك عربة صغيرة موضوع عليها مايكروفون يتحدَّث عبره شخصٌ بالفرنسية، ثم يعقبه شخصٌ آخر مترجمًا للعربية، يرددان دون انقطاع:

- سيتم تجميع طالبي اللجوء الذين هم بلا مأوى في مركز خارج باريس إلى حين استكمال إجراءاتهم، لن يُسمح لأحد بالنومِ أو التَّخييم في هذا المكان بقرار مِن المحافظة، على الراغبين التوجه نحو "الباصات" في ساحة لاشابيل، سيقومُ موظفون مِن مكتب الهجرة والاندماج بمراجعة بياناتهم؛ ومِن ثم ترحيلهم لمركز الإسكان الطارئ".

يدخلُ البوليس البلدي المكان تتبعه ناقلات النفايات، وبدأتِ الحملة مِن حديقة لويس دو مارياك، حيثُ هاجمَ جمعٌ غفير مِن عُمَّال النظافة الحديقة بإشراف وحماية البوليس، وانتزعوا كل الخيام البلاستيكية المنصوبة داخل الحديقة والأغطية والمراتب الأسفنجية القديمة والخِرَق ورمُوا بها في ناقلة النفايات، تحلَّق اللاجئون في الساحة حول "الباصات"، يخشون أنْ يكونَ في الأمر خدعة ما؛ إذْ أنَّ كثيرًا منهم قد استنفد إجراءات اللجوء، ولم ينل الحماية، وأصبح وضعه معقّدًا، ويربك حتى الإدارات الفرنسية. البوليس لم يكن عدائيًا لكنه كان حاسمًا. انتقل عُمَّال النظافة إلى منطقة سكة المترو المعلقة، والتقطوا كُلَّ شيء مهمل مِن أغطية وخيام وملابس ورَمُوا بها في ناقلة النفايات. ثم اتجَّهتْ العربة نحو ملجأ أسمريت يماني، تقف مرتبكة، عندما يشير لها ضابط الشرطة أنْ تبتعدَ لتُزال أكوام الأوساخ، تقول للضابط:

- هذه أمتعتي، وكثير منها يخصُّ أشخاصًا يأتمنونني عليها !

يقولُ لها الضابط بحسم:

- خذي أمتعتك وغادري الآن، هناك شكوى مِن صاحب العقار بأنَّ وجودك يُشَكِّل خطرًا على سلامة العقار وساكنيه.

تقفُ أسمريت قليلًا، تنتظرُ أنْ يأتي "الصواريخ" لحمل أغراضهم، لكن لا أحد يأتي، تحمل حقيبة صغيرة في يدها ثم تبتعد؛ ليهجم عمال النظافة على الملجأ ويَزْمُوا بِكُلّ ما فيه على شاحنة النفايات.

تأتي الفتاة الفرنسية السمراء الجميلة في موعدها اليومي، توقف العربة قُرْبَ الساحة، عندما تبدأ في إنزال حافظات الشاي والمناضد يتَقَدَّمَ نحوها شرطي ويقول لها بأدب:

- ممنوع ابتداءً مِن اليوم توزيع الطعام والشراب في هذا المكان، أرسلتْ البلدية خطابات بهذا الشأن لكل المنظمات والجمعيات الخيرية، ويبدو أنَّ عنوانك ليس بطرف البلدية.

ردَّتْ هي محتجَّةً:

- نعم، لكني أوزع فقط قهوة وشايًا لا أكثر!

- ممنوع أيضًا، سبَّبَ تمركُز المهاجرين في هذا المكان، وبهذا الوضع المزري كثيرًا مِن المشكلات للبلدية، لذا قرَّرَتْ البلدية منع كل التسهيلات التي تُقَدَّم هنا لكيلا يتجمع المهاجرون مَرَّة أخرى، سيتم ترحيلهم الآن إلى مركز إيواء مؤقت.

كان الشرطي لطيفًا وهو يشرح للفتاة القرارات البلدية. أعادتْ جمع أغراضها وغادرت المكان. وبعد مغادرتها داهمت شرطة البلدية مطعم (أنا السودان) وأخرجتْ جميع مَنْ فيه مِن عاملين

وزبائن ثم أغلقتْهُ، كان المطعم يخالف المعايير الصحية.

عندما يصل الدكتور طارق إلي الساحة يجدُ أنَّ عُمَّال البلدية مُنْهَمِكُون في انتزاع المقعد الخشبي الذي يتخذُّهُ مكتبًا. يحتجُّ معترضًا، ثم يُلْقِي خطبةً:

- لا يحقُّ لكم أنْ تمنعوا هؤلاء المهاجرين مِن الإقامة هنا، إنَّه حقٌّ دستوري وقانوني. ما تقومون به مخالف لروح الجمهورية الفرنسية، أين الحرية المُدَّعَاة؟ أين المساواة؟ أين الأخوة؟ هؤلاء المهاجرون يأتون إلى هنا لأنَّ حكومتكم تدعم الدكتاتوريات في بلادهم، لأنكم تبيعون السلاح للجميع ليتناحَرُوا للأبد...

يقفُ مسيو نيكولا دو جاردان متكئًا على شمسيته مسرورًا، فها هو الآن يكسبُ حربَه القديمة مع الدكتور طارق، فلن يعودَ هذا الأخير للجلوس هنا، ولن يزدحمَ المكانُ بالمهاجرين المزعجين!

يقف عاصف في طَرَفِ الميدان، يرى أنَّ كثيرًا مِن المهاجرين رَكِبُوا "الباصات" وتردَّدَ كثيرون. عندما ينتصف النهار تشرع عربات النظافة في غسل المكان بالماء والصابون والمُطَهِّرَات، أصبح المكان خاليًا تمامًا مِن المهاجرين كأنَّهم لم يمرُّوا مِن هنا ذات يوم. يلقي عاصف نظرة مليئة بـ"النوستالجيا" للمكان ويغادر!

الفصل الثالث عشر

جحيمُ المنسيين

على امتداد سنين ع عِشْرَتِنَا لم يكن هناك ما يُعَكِّر صفو علاقتنا، فقد كانتْ تسير بشكل هادئ مثل نهر عجوز يشقُّ سهلًا كبيرًا. أتجنَّبُ ما استطعتُ أنْ أثيرَ خلافًا مع آن ـ صوفي. كان يصيبها الضجرُ أحيانًا، فاختار أنْ ابتعدَ عنها قليلاً؛ لأتيح لها عزلة مَع نفسها تساعدها في ترتيب نفسها وتفكيرها. كنتُ أنا أحتاجها في كُلّ وقتٍ بقربي. إذا أحسستُ أنَّها ترغبُ في شجاري، أنسحبُ مِن أمامها إلى أنْ أحسَّ أنَّ هذه الرغبة قد غادرتْهَا. تمرُّ عليها بعض الأزمات فتفقد الرغبةَ في الحديث معي أو حتى في معاشرتي وأنا أتفهمُ، كنتُ أقول لها:

- عندما تحسين أنَّ حضوري يُضْجِرُكِ، أخبريني سأخرجُ للتنزه وزيارة بعض المكتبات!

كنتُ أسعى جاهدًا أَلَّا أضجرها، وأَلَّا أجعلها تتضايق مِن الإقامة معي. لكن رغم ذلك حدث أنْ نشبَ ذات مرة خلاف كبير كاد أنْ يذهبَ بعلاقتِنَا إلى الجحيم. كان هناك أمرٌ يشغلُ بالي كثيرًا، وسبق أنْ حدَّثتها عنه مرات عديدة لكنها في كُلّ مَرَّة تصدُّنِي بِحَسْمٍ. لكن في تلك الليلة قرَّرْتُ أنْ أرمي لها بطلبي. إنَّ هذا الأمر يعذبني كثيرًا. لن أستطيعَ الانتظار أكثر. أحسستها أكثر لطفًا في تلك الليلة ومزاجها مُعْتَدِل. جلستُ قربها، أو بالأحرى أقعيْتُ تحت قدميها. تجلس على الكنبة، ترسل رجلًا نحو الأرض، وتَعْقِلُ الرجْلَ الأخرى تحت مؤخرتها. تنحسرُ تنورتها تمامًا، تحرَّكتْ فيَّ رغبةٌ مخاتلة، فقمعتُها في مهدها. كانتْ مُنْهَمِكة في تنظيف أظافرها ببطء واستمتاع جَلِي حتى أنَّها لم تتنبه لجلستي الغريبة. همستُ لها:

- أريدُ أنْ أطلبَ منك شيئًا.

ردَّتْ لي دون أنْ تتوقف عن الذي تفعله:

- إذا بوسعي أنْ أجيبَ عليه؛ فلن أترددَ.

- أعرف أنَّك لا تريدين هذا الشيء.

توقَّفتْ ونظرتْ لي في عيني باستغراب:

- فلماذا تطلبه إذنْ؟

- لأني أريده. بل أتشَوَّق أنْ أُحْظَى به. إنَّه قيمة كبرى عند ي .

رفعتْ رجلَها عن الأرض وألحقتْهَا بالأخرى تحت مؤخرتها، قالتْ كأنَّها تحذر:

- إذنْ سنخوضُ حربَ إرادات؟

- لا مكان للحرب بيننا بتاتاً!

- قل لي ماذا تريد؟

- ننجبُ طفلاً!!

أسندتْ ظهرها إلى المسند ونفخت بفمها ضَجِرَةً:

- أَلَمْ نتَّفق على هذه المسألة منذ باكر علاقتنا؟

- نعم.. لكن أُفَكِّر طوال الوقت في الأطفال، إنَّه واجب إنساني في المقام الأول. إنه دَيْن واجب السداد للطبيعة التي وضعتنا على هذه الأرض، لا بُدَّ أنْ يحلَّ مكاننا أحد.

ردَّتْ عليَّ بضيقٍ وسخرية:

- وهل وقَّعتَ عقدًا في ظلامِ الغيبِ السحيقِ بأنْ تأتي ببديلٍ عنك قبل أنْ تتلاشى في العدم؟ هل اخترتَ في الأصل أنْ تأتي إلى هذا الهُرَاء؟ أظنُّك عدتَ مرَّة أخرى لخرافات عصور الظلام التي

تعشش في عقلك الذي يشبه غرفة جرس في كنيسةٍ مهجورة!

هي لا تملُّ إذَنْ مِن تكرار أسباب رفضها. تقولُ لي إنّها غير مستعدَّةٍ لتربية طفل، وأنَّها غير مستعدَّةٍ لتكريس ساعات طويلة مِن يومها لأجل كائن آخر مهما كانت صلتها به، ولا رغبة لها في أنْ تصيرَ أُمًّا، فعاطفة الأمومة عندها معطلة في هذا الوقت. ولَمْ أَمِلّ أنا أبدًا مِن أن أطالبها بأنْ تُنْجِبَ لنا هذا الطفل. أتحَيَّنُ الفرص واستغِلُّ لحظات صفائها لكي أترجاها بإصرار. أحسُّ كأنَّني قطعتُ غصنًا مِن شجرة الحياة إذا رحلتُ دون أنْ أتركَ ذريةً، غصنًا تعهَّدتْه بالرعاية أجيالٌ مِن أجدادي بدءًا مِن آدم وصولًا إلى أمي. أريد أنْ أكونَ ممتدًا في شجرة الوجود، ممتدًا في الأزل، في مبتدئه ومنتهاه اللانهائيين، أريدُ أنْ أكونَ حيًّا حتى بعد مماتي الظاهري. أريدُ أنْ أتعهدَ هذا الغصن بنفسي أنْ أسقيه مِن العصارة ذاتها التي سُقِيْتُ. فهذه مهمتي في مسيرة الكون العظيمة وكُلّ ما سواها أظنُّ أنَّه مُسَخَّر لإنجازها. وظللنا في هذه الطِراد إلى أنْ جاءتني ذات صباح وهي تحمل شريط اختبار الحَمْل، وقفت قُرْبِي وكنتُ حينها أعملُ على حاسبي المحمول، كانتْ مبتئسة بجلاء، قالت لي:

- أنظر، أخيرًا ستسدد للإنسانية دَيْنَهَا. أمسرور أنت؟

ودخلتْ غرفة نومنا وأغلقتْ الباب عليها لوقتٍ طويل. أعرف أنَّها غير مسرورة وربما مصدومة. هي تأخذُ موانع الحمل باستمرار وبصورةٍ منتظمة. ربما نسيتْ مواقيت جرعة ما؛ فحدث الحمل رغمًا عنها. تركتُها في عزلتها. قلتُ في نفسي: إنْ حدَّثتْنِي عن الإجهاض؛ فلن أقبلَ، لن أدعها تجهض هذا الجنين على الإطلاق! صامَتْ عن الحديث معي لبضعة أيَّام ثم صالحتني. كنتُ أَرْقُبُهَا عن كثبٍ؛ لأنَّني أخشى أنْ تجهضَ الجنين. مضت

الفترة القانونية للإجهاض الشرعي ببطء، وبعدها اطمأنَنْتُ بأنَّها قَبِلَتْ الحمل على مضضٍ.

ومضتْ شهورُ الحمل سريعًا، كنتُ متلهفًا أنْ أرى ابني. كثيرًا ما تمنَّيتُ أنْ يأخذَ كُلّ ملامحه مِن أمه، أردتُه نسخةً مذكَّرَة مِن آن ـ صوفي. أخشى أنْ يأخذَ ملامحي الإفريقية، أنا لا أخجلُ مِنها لكن السياق يقتضي، لكي يعيش مُكَرَّمَا، أنْ يحملَ تقاطيع أوروبية حقيقية. أنا لا أستطيعُ أنْ أُعلنَ هذا الرأي، لكنه إحساس داخلي يقولُ لي أنَّ جيناتي يجب أنْ تذوبَ في دِماء أوروبية، وأنْ تضيعَ مع الأجيال كُلّ صفاتِي الوراثية الأصلية! كنتُ أتمنَّى ألَّا يحزن ابني أو يضطهد في مستقبلِه بسبب أنَّ له أصلاً وضيعًا، يا إلهي لِمَ أقولُ ذلك؟! أعذرني يا سيدي!

في الشهر الأخير مِن حمل آن ـ صوفي أصبحتُ قليل النوم، أسهر قُرْب فراشها فهي تنام بصورةٍ مُتَقَطِّعة وتذهبُ كثيرًا للحمام أثناء الليل، تقولُ لي مفسرةً إنَّ تمدد الرحم بسبب الجنين، يقلّص مساحة المثانة لذا لا تستطيعُ الاحتفاظ بالبول. وحين جاءَها الطلق كان الوقت بعد الظهيرة، ذهبنا سريعًا لطوارئ المستشفى وتمَّ إدخالها غرفة العناية الطبية، ووصلتْ بجهاز لقياس قوَّة الطَلْق، انتظرتُ معها في الغرفة إلى أنْ جاء الطاقم الطبي لأخذها لغرفة الولادة، أخبرني الكادر الطبي أنَّ لي كامل الحق في حضور عملية الولادة، لكن قلتُ له إنّي أفضل الانتظار خارجًا. لم أكن واثقًا مِن قدرتي على تَحَمُّل منظر الدماء والسوائل الحيوية. انتظرتُ قليلًا ثم ذهبتُ خارج المستشفى لأتمشى قليلًا وأُخَلّص جسمي مِن التوتر الذي يهصره. كنتُ قَلِقًا على آن ـ صوفي، أحسُّ في قرارة نفسي أنّي دفعتُها لهذا الحمل دفعًا، هي لم تكن ترغب فيه بتاتًا. كانت تهمُّني صحة ابني، وتدور في رأسي كثيرٌ مِن

الهواجس بخصوص شكله ولونه!!

عدتُ للانتظار في استقبال طوارئ الولادة، أقضمُ أظافري متوترًا، تستغرق الولادة وقتًا طويلًا، لم يخرج أحد ليخبرني بالذي يحدثُ. بعد برهة فتح الباب الخارجي وخرج طبيب وناداني، عندما دخلتُ بدأ يتحدَّثُ معي لكني ذهبتُ ناحية آن ـ صوفي التي كان يبدو عليها الإرهاق. سألتُها بلهفة:

- أين طفلي؟

قالت لي بصوتٍ واهنٍ:

- أنا آسفة؛ لقد مات أثناء الولادة.

- لن أصدقك، أنتِ وهبتِ طفلي للتبني، أنتِ تنتقمين مني !

ناداني طبيب، قال لي مواسياً:

- فعلنا كل شيء لننقذه، سنسلمك تقريرًا مفصلًا بالذي حدثَ، أنا آسفٌ، أعرف أنَّه اختبار قاسٍ وأتفهَّم غضبك وحزنك، تعال لتلقي نظرة على طفلك ...

- لن أنظر إلى شيء، أعرف أَنَّها وهبتْهُ للتبني؛ رأيتُها تخطط لذلك في أحلامها!

ثم خرجتُ مِن المستشفى مهرولًا، وهِمْتُ حزينًا، أصابني إحباطٌ عظيم، أرى طفلي في خيالي يرتاد المدارس الفرنسية، أسمعُه يتكلم دون لكنة أجنبية، أراه متحققًا في حيه ووسط أصدقائه، أردتُ أنا أنْ أرى فيه طفولتي التي لم أعشها في فرنسا ومراهقتي التي ضاعت في مدينتنا البائسة وسط الكبت والأوهام!

عدتُ في اليوم التالي للمستشفى ودخلتُ على آن ـ صوفي

واعتذرتُ لها بأَنّي كنتُ مصدومًا بشدة لذا خرج كل شيء عن سيطرتي، وسامحتني هي ببساطة!

لكن في ذاك المساء، بعد وقتٍ طويل مِن حادثة المستشفى، حدَثَ خلاف بيننا نَحَتْ فيه الأحداثُ منحى لو كنتُ أعلمه لمسكت نفسي! آن ـ صوفي هي أجملُ شيء عرفتُهُ في حياتي، أحسُّ بأمان عجيب قربها، أحسُّ بنفسي خفيفًا كريشة تحملها نسمةٌ ربيعية، لا أحسُّ ثقل وجودي، أحسُّ أنَّ تحققي في هذه البلاد قد أوشك على الاكتمال، فهمتُ الكثير مِن الأشياء التي لولا مُسَاكَنَتِي لآن صوفي لما عرفتُها، كنتُ أستردُّ سنواتي التي ضيعتها في السودان.. في حضن آن صوفي الآمن الدافئ الشهي أَستردُّ طفولتي مِن حضن أمي القلق والمضطرب، بأُنْسِها وحلو مَعْشَرِهَا، كنتُ أستردُّ صداقات صباي التي لم أعشها بسبب ذهول أبي، كنتُ أتعلَّمُ مِنها ما كان ينبغي أنْ يُعَلّمَني له أبي، إنَّها قيمةٌ كبرى عندي. لكن ذاك المساء ركبني الفضول. كُنَّا نجلس سويًا في صالون شقتنا، أنا على الكنبة ممسكًا بهاتفي المحمول أتجوَّلُ في فضاء الشبكة العنكبوتيّة الفسيح، وأحتسي جعة أمستردام الحاذقة، بينما تعمل هي على كمبيوترها المحمول، أثناء انشغالنا نهضتْ هي لدخول الحمام، فجأة ودون تخطيط خطرت في ذهني كُلُّ المرَّات التي كانتْ تغلق شاشة الكمبيوتر عندما أقتربُ مِنها وهي تعمل، وكُلُّ المرَّات التي حاولتُ أنْ أفتحَ كومبيوترها في غيابها فتصدّني كلمةُ المرور، في كُلّ مرَّة أحسُّ أنَّها تخفي مني شيئًا ما، ودون سابق تفكير أو تخطيط، وكأَنَّ قوةً غيبية سحبتني مِن يدي نهضتُ وألقيتُ نظرةً على حاسوبها، تصفَّحتُ ملفات معالج النصوص المفتوحة بسرعةٍ؛ فلمحتُ في أحدها:

جامعة باريس

مدرسة الدكتوراه ـ مختبر العلوم النفسية

الاضطرابات النفسية المرتبطة بالهجرة غير الشرعية

(حالة طالبي اللجوء مِن السودانيين في فرنسا)

رسالة دكتوراه في علم النفس

(قيد الإجراء)

إعداد: **فيليب** آن ـ صوفي

إشراف السيد: **جان** جاك مارتينو

السنة الثانية 2017

أحسستُ أنَّ هناك خطأ ما، كيف نعيشُ معًا طوال هذا الوقت؛

ولا تخبرني أنها تعد فيّ رسالة للدكتوراه؟! والأنكى أنَّها تتخذُّ مِن هؤلاء اللاجئين الذين تغمرهم بعطفها الزائف فئران مختبر، وربما مني أنا شخصيًا بوصفي مهاجرًا قديمًا.. ياللهول! جلستُ على الكنبة مشوشًا وغاضبًا. عندما عادت مِن الحمام سألتُها بغضب:

- لماذا لم تخبريني بأنَّك تُعِدّين رسالة دكتوراه؟

أجابتني وهي تتحاشى النظر إليّ:

- وكيف عرفتُ ذلك؟

- رأيتُ ذلك على كمبيوترك قبل قليل!

أجابتني بحدة:

- أتعني أنَّك تتلصص على أشيائي؟!

قلت لها متجاوزًا تعليقها:

- أنتِ تحصلين على المادة التي تجرين عليها البحث مستغلةً الظروف السيئة التي يمر بها اللاجئون، الظروف التي تجعلهم هاشين/ مهمشين وقابلين للاستغلال، ترشيهم بالعاطفة والاهتمام لأنَّك تعلمين أنَّهم يحتاجون ذلك بشدة، وسيتنازلون عن كُلّ شيء مقابل الحصول عليهما... يؤسفني أنْ أقولَ إنَّه عملٌ غير أخلاقي! وربما استغللتْنِي أنا أيضًا لترمي بي عند نهاية البحث، ربما تستثمرين في عاطفتي تجاهك!!

غضبتْ بشدَّة، وصاحتْ بعصبية:

- كيف تتلصص عليّ؟!

قلت لها:

- أنا زوجُك!

- كونك زوجي لا يسمح لك ذلك بأنْ تتلصصَ على أشيائي،

أنا زوجتك ولستُ عبدتك، مِن حقي أنْ أحتفظَ بمساحةٍ مِن الخصوصية لا يجوز لك عبورها إلا بإذني وبإرادتي فقط. لازلتَ تحملُ بداخلك قيم مجتمعك القديم، الحياةُ هنا تقتضي منك أنْ تتنازلَ عن كثير مِن امتيازاتك بوصفك ذكرًا، أنا أؤكد لك: لن تصيرَ فرنسيًّا مهما حدث؟ عليك أنْ تعترفَ بذلك.

أحسستُ أنَّ الأمر فلتَ مِن كلينا، وأنَّنَا ذهبنا بعيدًا، فنهضتُ ودخلتُ الغرفة وأغلقتُ الباب، أطفأتُ النور وواصلتُ شُرْبِ الجعة إلى أنْ أدركني النوم.

غضبتْ بشدَّة، وصاحتْ بعصبية:

- كيف تتلصص علي؟!

قلت لها:

- أنا زوجُك!

- كونك زوجي لا يسمح لك ذلك بأنْ تتلصصَ على أشيائي، أنا زوجتك ولستُ عبدتك، مِن حقي أنْ أحتفظَ بمساحةٍ مِن الخصوصية لا يجوز لك عبورها إلا بإذني وبإرادتي فقط. لازلتَ تحملُ بداخلك قيم مجتمعك القديم، الحياةُ هنا تقتضي منك أنْ تتنازلَ عن كثير مِن امتيازاتك بوصفك ذكراً، أنا أؤكد لك: لن تصيرَ فرنسيّاً مهما حدث؟ عليك أنْ تعترفَ بذلك.

أحسستُ أنَّ الأمر فلتَ مِن كلينا، وأنَّنَا ذهبنا بعيداً، فنهضتُ ودخلتُ الغرفة وأغلقتُ الباب، أطفأتُ النور وواصلتُ في شُرْبِ الجعة إلى أنْ أدركني النوم.

الفصل الرابع عشر

ساحةُ مَادْلين

يغادر عاصف لاشابيل مكتئبًا، أصبحتْ لاشابيل ذكرى بعد الذي حدَثَ صباح اليوم. يتَسَكَّعَ على رصيف السين لوقتٍ طويل، يحسُّ بخواءٍ عظيم وإحباط، يتوجَّه إلى شقة ماري ـ روز. يجدها ثملة ومكتئبة. يجلس لينادمها لكنها تطلب مِنه أنْ يعتليها. تنزع عنه ملابسه بعنف، وترمي به على السرير لكنه لا يستجيب. تحاول أنْ تستحثه لكنه يفشل، يحاولُ أنْ يستدعي كل الفتيات المثيرات اللائي عرفَهُنَّ في حياته لكن بلا طائل. بدتْ له ماري ـ روز مثل ساحرة شريرة تخرجُ مِن حكاية شعبية، تَجَلَّى له كل قبحها في هذه اللحظة. تسعى بلا كَلَلٍ أنْ توقظ هِمَّتَه، تُجَرِّبُ كل الأساليب التي خبرتها خلال سنوات عمرها الطويلة لكن عبثًا تحاول. كانتْ تحتاجه بشدة، تريدُ أنْ تدفن في صدره كل بؤسها ومقتها للحياة. عندما تفشل تنهض مِن جانبه، وتصيح فيه بكراهية:

- لِمَ أتيتَ إلى هنا إذن؟ هل تظنّني جمعية خيرية؟ أنتَ هنا لتعاشرني، فقط لتعاشرني مقابل المال!

ترمي له بملابسه على وجهه، وتؤشر لها نحو باب الشقة، ثم تصيح فيه:

- اخرج ولا تعد إلى هنا مرَّة أخرى أيها المشرد العاجز!

يرتدي عاصف ملابسه على عجل ثم يخرج. يحس بفراغ يملأ روحه وعقله، يتَسَكَّع في الشوارع بينما يُسَائل نفسه: هل فقدتُ قدرتي الجنسية؟! هل تريدُ المدينة الكبيرة أنْ تمعن في إذلالي؟! يتجه نحو متجر ليدل ويشتري كحولًا مِن كل نوع ومكسرات ثم يتجه نحو ساحة مادلين. عندما يصل يعبر الساحة المزدحمة نحو كنيسة مادلين. يصعد درجاتها ويختار الجلوس تحت واحد

مِن أعمدتها يعطي ظهره لمدخل الكنيسة الغربي، ويقابلُ بوجهه الساحة. يتأملُ البشر المسرعين إلى غايات يدركونها!

يفتح زجاجة الفودكا ويشفط مِنها قليلًا، ثم ينفخُ ليدفع حرارةَ الكحول بعيدًا عن حلقِهِ، يتأملُ الكاتدرائية الضخمة ويخطرُ له أنَّ الأوربيين قد أفرغوا في هذه المباني الضخمة كُلَّ توتر عصور الانتقال مِن التصوراتِ القديمة للحياة في القرون الوسطى إلى فضاء عصور النهضة الرحيب!

يبدأُ في الشرب بسرعةٍ كبيرة كأنَّه يرغب أنْ يغيبَ عن الوعي سريعًا، يريدُ أنْ يهربَ مِن جحيم الأفكار التي تشتعل في رأسه الآن. مع مُضِي الوقت، ومع أبخرة الكحول المتصاعدة في رأسه يرى مامادو حميدي منبثقًا مِن بين الحشود التي تعبرُ الميدان في هذا الوقت مِن المساء، كأنَّه يخرجُ مِن حلم ليلة شتائيّة مُمِلَّة. عندما يقتربُ مِنه يرى غُرَّة الصلاةِ في أعلى جبهته تتمدَّدَّ أكثر مما كانتْ عليه عندما كانا معًا على القارب الذي عبرَ بهما المتوسط. يطلق مامادو حميدي لحيةً طويلة، تكادُ تصلُ سُرَّتَهُ، يرتدي سروالًا يقفُ أعلى ركبته وقميصًا بلا أكمام، يضع على الأصبع الأوسط ليده اليمنى مسبحة إلكترونية، ويمسكُ باليد اليسرى زجاجةَ ويسكي سكوتش ويتأبطُ فتاةً شقراء طويلة، ترتدي تنُّورة قصيرة، قبل أنْ يصلا إلى أوَّل عتبات كاتدرائية مادلين يصيحُ فيه عاصف متعجباً:

- ألم يلتهمك الأسد في الكولوسيوم؟

يضحك مامادو ضحكة انتصار، يرفعُ يده على كتف الشقراء:

- لا لم يلتهمني وإلا لما رأيتَنِي هنا!!
- يا إلهي.. كيف نجوتَ؟

يأخذ رشفة مِن الزجاجة التي في يده، ثم يقول مَرِحاً:

- يبدو أنَّ الحارس نَسِيَ أنْ يغلقَ بابَ قفص اللبؤة؛ فخرجتْ هي أيضًا، وأحسستَ أنَّها النهاية، تخيل: أسد ولبؤة ماذا سيفعلان غير أنْ ينهشاني بقسوةٍ! لكن لحسن حظي، كان الأسد مُلْتَاعَا، عندما رأى اللبؤة، أخذ في الأنين وخفض رأسه، وتركني وذهب نحوها. تمرَّغتْ اللبؤة في الأرض بدلالٍ كبير عندها نفض الأسد عُرْفَه مبتهجًا وزأر، تقدَّم الأسدُ نحوها واعتلاها بشبقٍ كبير، اهتزَّتْ مدرجات الكولوسيوم الثمانية بهتاف الجمهور المهووس، ولم يعد يهتم لأمري أحدٌ؛ فانسللْتُ هاربًا.

يصيح مندهشاً:

- ألا تزال العِصابة الحمراء معقودة على يدك؟! انظري يا صديقتي!

تهمس له الفتاة باستغراب:

- توقف عن الهذيان، ليس هناك عصابة على يد صديقك!!

بغتةً تتغيَّر ملامحُ وجه مامادو، يصيح بغضبٍ:

- لكن قُلْ لي لماذا لم تدافعْ عني يومها؟ ألستَ مسلمًا مثلي؟ ألا تظنّ أنَّ تعاليمهم فاسدة؟ وهل رغبتُك في أنْ تقيم في بلادهم تمنعُكَ عن الدفاع عن معتقدِكَ؟ لا يهمُّ أنْ تحتسي الكحول، أو حتى أنْ تعتلي النساء مثل ثور في حظيرة الأبقار، لكن المهم ألَّا تفقد يقينك بأنَّك على حق، أنَّ دينك هو الدين القويم وأنَّك هنا لتبذر معتقدك، لتُحَوِّل أوروبا إلى قارةٍ مسلمة؟ نعم يمكن ذلك فقط تحتاج أنْ تؤمنَ بذلك.

يجيبُه عاصف، بينما ينظرُ للشقراء التي تستندُ إلى كتفه،

وتعبرُ جسده شهوةٌ ساحقة:

- يومها عَلِقَ صوتي في لهاتي كبصاقٍ شديد اللزوجة، أُصِبْتُ بالحَبْسَةِ يا صديق!

يصيح مامادو:

- لا أُصدقُكَ!

ويستديرُ مامادو راجعًا نحو الميدان وهو غاضب، تتشبثُ الشقراء بذراعه، يتشنجُ جسد عاصف مِن الشهوةِ؛ فيمسكُ بالعِصَابة الحمراء، ويشدُّها بقوةٍ هائلة؛ فتنقطعُ ويُحْدِثُ انقطاعها صوتًا قويًا، عندما تسمعُ الشقراء هذا الصوت تتوقف، يحاول مامادو أنْ يسحبَها معه، لكنها تملصُ يدها منه وتقف في مكانها، ينظرها مامادو للحظة ثم يغادر غاضبًا. تصعد الشقراء نحو مُتَّكَأ عاصف على حائط مادلين، تصعد بخطوات متباطئة، تنظر لعاصف في عينيه بشبقٍ، كانتْ كأنَّها تُجَسِّد الجمال الغربي بكلياته، عاصف مذهولٌ يزدردُ في لعابه المُر، تصله الشقراء عند مجلسه وهي تتلوى مثل ممثلة إباحية حاذقة، تدفعُه نحو الحائط، ثم تبتعدُ خطوات عنه لتنزع ملابسها قطعة وراء قطعة وهي تتلوى وتصدر أصواتًا شَبِقَة، ثم تأتي نحوه وتنزعُ عنه ملابسه ببطء، يعلق بجسمه خدرٌ كبير، يرفعُ يده ليلمسَ قطعة المانجو المتدلية بتحدٍ مِن صدرها، لكنها ترتفع فقط في حقل أمنياته، يحاولُ أنْ يلعقَ شفتيها الغليظتين، لكن رأسه يزدادُ التصاقًا بالحائط. تعربدُ فيه الرغبةُ بجنونٍ لكنه عاجزٌ، عندما تفرجُ ساقيها لِتَلِجَهُ، تُقْرَع أجراسُ الكاتدرائية؛ ليعبرَ عاصف مِن الحلمِ إلى الواقعِ، ويجد نفسه عاريًا ومقرفصًا تحت أحد أعمدة الكاتدرائية، يده اليمنى تمسكُ بعضوه المنتصب، ويده اليسرى

ممسكةٌ بصورةٍ لعارضة أزياء شقراء منزوعة مِن مجلة إعلانية، عندما يرفعَ رأسه يرى عشرات الكاميرات والهواتف المحمولة مصوَّبة نحوه، وضابط شرطة محاطًا بجنودِه يقفُ على رأسه، يضع له القيود ويصيح:

- انهض أيها المعتوه!

يأخذه الضابط إلى مفوضية الشرطة ليمضي الليل في الحراسة، يبدو أنَّه كان ثَمِلًا بشدَّة؛ لأنَّه عندما يصحو لا يتعرَّفُ على المكان إلا بعد جهدٍ شديد. لم يبقَ مِن أحداثِ ليلة الأمس إلا صور قاتمة لا يميزُ الخيالي مِن الواقعي مِنها. يحسُّ بإحباط كبير يسيطر عليه وعدم رغبة في الاستمرار في الحياةِ، إنَّها ملهاةٌ عنيفة أكثر مِنها تراجيديا نبيلة. يضغطُ بأصابعه على صدغيه؛ ليتخلصَ مِن أبخرة الكحول المتراكمة في رأسه، والتي تشوّش عليه حتى اللحظة.

يفتح ضابطُ شرطةٍ بوابةَ الحارس، ويطلب مِنه أنْ يرافقه، يدخله المكتب ويجلسه. يداعب عاصف العصابة الحمراء بحركة دائرة سريعة، يسأله الضابط:

- هل آلمك القيد؟!

- لا، فقط أعبث بعصابتي الحمراء!

- لا أرى عصابة حمراء، يبدو أن تأثير الكحول لم ينته!

تحدَّث معه الضابط بوضوحٍ وحياد، قال له:

- هل تستحضرُ السببَ الذي قادك إلى هنا؟

- لا أستحضرُ تمامًا الذي حدثَ!

- كنتَ البارحة تستمني عاريًا قُرْبَ كاتدرائية مادلين،

وشاهدك الآلاف مِن عابري الميدان وصورك تملأ شبكات التواصل الاجتماعي الآن!

- كنتُ ثَمِلًا جداً!

- كونك ثَمِلًا هذا لا يعفيك مِن المسئولية القانونية، لو أنَّك لا تثقُ في قدرتِك على احترام القانون وأنتَ ثمل؛ فلا تَثْمَلُ، وإذا ثَمِلتَ عليك أنْ تتحمَّلَ قانونيًا ما يترتبُ على ذلك مِن نتائج.

يصمتُ لبرهة، ثم يضيفُ:

- إنَّ ممارسةَ الجنس، أو عرض الأعضاء الحميمية، أو الاستمناء في مكانٍ عام ممنوع قانونيًا، وتصلُ عقوبته إلى السجن لمدَّة عام، وغرامة قد تصل إلى خمسة عشر ألف يورو!

- ورطتُ نفسي بغباء...!!

- أصبحتْ قضية رأي عام. لم يتوقف اليمينيون عن النباح منذ مساء الأمس، إنَّهم يستغلون الحادث لتمرير أجنداتهم فيما يختص بالهجرة. غالبًا ما يحَوّلك القاضي لمعالج نفسي ليتأكدَ مِن صحتك النفسية. اِبْقَ في صالة الانتظار حتى نرى ماذا يقرر القاضي في شأنك.

كانت الصالة خالية والتليفزيون مُشْعَلًا على قناة (بي أف أم ـ تي في) يبثُّ أخبارًا عن السباق الرئاسي في فرنسا، وعن كثيرٍ مِن الجدلِ الذي تثيره مارين لوبان مُرَشَّحة الجبهة الوطنية اليمينية. جلس عاصف مُتبَلِّدًا على الكرسي، رمى بيديه على جانبي الكرسي ومدَّ رجليه أمامه. تحومُ غيمة سوداء أعلى رأسه وتمطرُ أفكارًا قاتمة. يحسُّ أنَّ وجوده أصبح عبثيًا وسَمِجًا. كيف ينتهي به الحال مستمنيًا في ساحة كاتدرائية مادلين!!، إنَّه يهوى إلى أسفل سافلين بلا كابح. إنَّه لا يأبَهُ الآن، وهذا ما يعذِّبُه! في غَمْرَةِ بؤسه

يلمح على شاشة التلفاز وجهًا يعرفُه يملأُ الشاشة، تتنبه كُلُّ حواسه بغتةً لينصتَ لمذيع الأخبار يراوح نبراتِ صوته باحترافية:

- "... وهو اليوم الثاني الذي يمرُّ على إضراب هذا الشاب الإفريقي، وفشلتْ كُلُّ المحاولات لإثنائه عن إضراب الطعام المفتوح الذي يخوضه بعزيمةٍ كبيرة كما يبدو، المبعوث الخاص ل (بي أف أم ـ تي في) في مبنى الركاب الثاني في مطار رواسي شارل ديغول، ماريون فيدال تمدّنا بالتفاصيل".

تظهر مراسلة التليفزيون وهي تثرثرُ، وفي خلفية المشهد يظهرُ بُشَارة جالسًا على الأرض وحاملًا لافتةً كبيرةً مكتوب عليها بالعربية والإنجليزية والفرنسية "أعيدوني إلى بلادي"، يبدو على بُشَارة الإجهاد والعزيمة. يقاطعُ المذيع المراسلة ليسألها:

- أولًا لماذا يرغبُ هذا الشاب في العودة لبلاده؟

- في الواقع دخل هذا الشاب إلى فرنسا بصورةٍ غير شرعية، بغرض طلب الحماية والحصول على اللجوء لكن عند وصوله إلى فرنسا تفاجأَ بالعددِ المهول ـ حسب تعبيره ـ للكلاب عند الفرنسيين وهو في الأصل مصاب بفوبيا الكلاب "السينوفوبيا" وأصبح يعيش في رعبٍ دائم و....

يقاطعها المذيع مرة أخرى:

- ما الذي يمنعُ عودته طالما طلب ذلك بنفسه؟

- مصدر الأزمة أنَّ هذا الشاب لا يملك أوراقًا تثبتُ هويته، ادّعى في البدءِ أنَّ هويته تشادية وعندما تَمَّ الاتصال بالسفارة التشادية والتي أجرت مقابلة معه نفتْ أنْ يكونَ مِن مواطنيها، ثم أدّعى مرَّة أخرى بأنَّه ليبي، وتَمَّ الاتصال بالسفارة الليبية التي رفضتْ إجراء المقابلة معه بحجة أنَّه ليس مِن بين مواطنيها

مَنْ يشبه هذه الهيئة! ثم أكَّدَ أخيرًا أنَّه سودانيّ لكن السفارة السودانية في باريس رفضتْ أيضًا الاعتراف به مواطنًا سودانيًا بسبب اللهجة الغريبة التي يتحدَّث بها، وِفْقًا للسفارة السودانية، وقد صرَّح الناطقُ الرسميّ باسم السفارة السودانية، الذي كان موجودًا قبل قليل للرد على استفسارات الصحفيين، أنَّ بالسودانِ لغاتٍ عديدة، ولهجات وطرائق متباينة في تحدُّثِ اللغة العربية لكن هذا الشاب لا يتحدَّثُ أيًّا منها، إنَّه لا يتحدَّثُ كالسودانيين، وإنَّ لهجته غريبة، وِفْقًا لتعبير الناطق الرسميّ.

- وما الحلول المقترحة؟

- في الواقع اقترحتْ السلطاتُ الفرنسية أنْ يتقدَّمَ هذا الشاب بطلبِ لجوءٍ للسفارة السودانية، وأنْ يطلبَ مِنها الحماية، لكن الناطق الرسميّ باسم السفارة السودانية وضعَ مزيدًا مِن العقبات بتأكيدِه أنَّ طلب اللجوءِ حمايةً مِن رِهاب الكلاب لم يرد في اتفاقيتي جنيف ونيويورك المتعلقتين بالحماية الدولية للاجئين لذا تصبح بلاده غير مُلْزَمَة بقبولِ طلب لجوء هذا الشاب!

يدفعُ الضابطُ بابَ غرفة الانتظار، ثم يصيحُ لعاصف:

- لقد تمَّ تحويلك للطبيبِ النفسي للتأكد مِن سلامتك النفسية، انتظر قليلًا لكي نرتبَّ موعدًا مع الطبيب!

****

يجلسُ عاصف محجوب أمام المعالج النفسي. مبتئسًا ويفيضُ بالضَجَرِ. يعتم عينيه ضباب مِن اليأس. وتحاصره الأسئلة ذاتها التي تتناسلُ بصورةٍ شيطانية. أين موقعه الآن في مراتب الوجود اللانهائية؟! ينظر له المعالج النفسي، يَعْقِدُ يديه

على صدره بتأنٍ ثم يقول:

- حدِّثني عن نفسك؟

يصمتُ عاصف لبعض الوقت، ثم يجيبُ بصوتٍ هادئ:

- أنا كما ترى يا سيدي لاجئ بائس. أعيشُ في الشارع متشرّدًا، ارتدي ملابسَ مستعملة منحتها لي إحدى الجمعيات الطوعية، آكلُ كُلَّ يوم طعامًا تعدّه أيادٍ مجهولة وتوزعه في الشوارع المعتمة أخر المساء، أنا أفقدُ هويتي التي كنتها في بلدي يا سيدي، ولم أعد سوى لاجئ ولا أملك شيئًا غير الانتظار! أنا أعيشُ في هذا الحال منذ شهور طويلة، ما يمزّقني حقًا أنني بدأتُ أتماهى مع هذا الوضع، بدأتُ أحسُّ أنّي حقًا لا أساوي شيئاً!

يقولُ المعالج مواسيًا بينما ينظرُ لعاصف في عينيه:

- إنَّ الهجرةَ اختبارٌ قاسٍ؛ لن يطيقَ خسائرها النفسية بشرٌ بيسرٍ. أتفهَّم تمامًا كُلَّ المشاعر السلبية التي تنمو بداخلك. أنا أسمعك، وسأساعدك في التخلّص منها إلى أنْ يكتملَ مشروعُ اندماجك في مجتمعك الجديد.

يتنفس عاصف ببطء، ثم يقول مشيرًا إلى معصمه:

- لا أظنّ أنَّ اندماجي سيتمُّ، وعلى يدي هذه العِصَابة الحمراء!

تمَّتْ

نوازي لوقراند – فرنسا

31/12/2017

ثبت بالأسماء الأجنبية التي تم تعريبها داخل نص الرواية

SOS Racisme	أس أو أس راسيزم (منظمة غير حكومية)
Intermarché	انتيرمارشيه (سلسلة متاجر كبيرة)
Orly	أورلي (مطار)
Eurodac	أوروداك (النظام الأوروبي الموحد للبصمات)
L'Ofpra (Office français de protection des réfugiés et apatrides)	الأوفبرا (المكتب الفرنسي لحماية اللاجئين وعديمي الجنسية)
La tour Eiffel	برج إيفل
Porte de la Chappelle	بورت دو لاشابيل (محطة مترو في باريس)
Boccaccio	بوكاتشيو (اسم إيطالي)
Boulevard de la Chapelle	بولفارد دو لاشابيل (شارع)
Télépathie	تلباثيا (التخاطر عن بعد)
Pont d'Iéna	جسر بون دْلِينا

Duster	داستر (ماركة سيارات)
Ferdinand de Saussure	دو سوسير (عالم لغوي سويسري)
Rosa Parks	روزا باركس (محطة قطارات)
Place de la Chappelle	ساحة لاشابيل
la place de la Madeleine	ساحةُ مَادْلين
Saint Louis	سانت لويس
Stalingrad	ستالينغراد (محطة مترو)
Strasbourg	ستراسبورج (مدينة فرنسية)
Centre du Bois	سنتر دو بوا (مركز استقبال لاجئين في باريس)
La Seine	السين (نهر)
Avenue Jean Jaurès	شارع جان جوريس
Rue Pajol	شارع باجول
Avenue Flandre	شارع فلاندر
Rue Marx Dormoy	شارع ماركس دورموى
Bois de boulogne	غابة بولونيا
Gustave Eiffel	غوستاف إيفل
Val de fontenay	فال دو فونتينيه (محطة للقطارات)

Vintimille	فانتيميليا (مدينة إيطالية)
France terre d’asile	فرانس تير دازيل (منظمة غير حكومية)
Rue Philippe de Girard	فيليب دو جيرارد (شارع)
gare du nord	قار دو نورد (محطة قطارات)
Trocadéro	قصر التروكاديرو
Glossary	قْلُوْسَرِي (ثبت بالمصطلحات)
Cannabis	كانابيس (قنب هندي- بنقو)
Clochard	كْلُوشَار (مشرد)
L’église de la Madeleine	كنيسة مادلين
Coliseum	الكولوسيوم (ساحة في روما)
La Chappelle	لاشابيل
Lampedusa	لامبيدوزا (جزية إيطالية)
Square Louise de Marillac,	لويز مارياك (حديقة)
Liane foly	ليان فولي (مغنية فرنسية)
Lidl	ليدل (متجر)
Lykamobile	ليكا موبيل (شركة اتصالات)

Marine Le Pen	مارين لوبان (زعيمة حزب الجبهة الوطنية)
Maïs	مآييس (ذرة شامية)
Kiabi	متجر كيابي
Préfecture de Créteil	محافظة كْرِيتيه
Centre d’accueil pour demandeurs d’asile ((Cada	مركز لإيواء طالبي اللجوء (كادا)
Allocation pour demandeur d’asile ((Ada	مساعدة مالية شهرية (آدَا)
Aéroport Roissy CDG	مطار رواسي شارل ديغول
Office Français de l’Immigration et de (l’Intégration (OFII	مكتب الهجرة والاندماج الفرنسي (الأوفي)

MINISTÈRE DE L'INTÉRIEUR

ATTESTATION DE DEMANDE D'ASILE
PROCEDURE NORMALE
Première demande d'asile

Identifiant :
Nom :
Nom :
Prénoms :
Sexe :
Situation familiale :
Né(e) le :
Nationalité :
Adresse :

Signature du titulaire

Chez :

Nombre d'enfants présents : 0

Délivrée par : Préfecture du Bas-Rhin
Le : 15/03/2019
Valable jusqu'au : 14/09/2019
Date de premier enregistrement en guichet unique : 16/11/2017
Statut : En renouvellement

Cachet et signature de l'autorité

1/1

1494155

منشورات إبيـيـدي

© جميع الحقوق محفوظة للناشر و أي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو الكترونية أو أي وسيلة سمعية أو بصرية دون موافقة كتابية، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.